الشيوعية عندما تتصادق

بقلم

دكتور محمد طلعت الإبراشى



دار المعارف

الشيوعية عندما تتصادق

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

إهــــداء

إلى كل إنسان على هذه المعمورة يريد حياة حرة شريفة قوامها الإخاء والتعاون والسلام لخير البشرية جمعاء أهدى كتابى هذا كى يعايش الشيوعية بواقعها المرير كما عايشتها عن قرب ، لا عن مجرد ما كتب عنها ، وليتعرف على أساليب الشيوعية البغيضة وكيف تنفذ بها إلى ضحاياها من الشعوب ،

شكر وامتنان

أتقدم بالشكر الخالص لكل من عبرّ عن أحاسيسه الحقيقية وأفصح عما يجول بخاطره ، أو أمدنى بمعلومات – سواء عن طريق المجادلة أو التصرف اللا إرادى من أفراد الشعب الكوبى – ساعدتنى على الإلمام الحقيق بخفايا الشيوعية وأرزائها ، كما أننى أعترف بالجميل لكل من شجعنى على كتابة هذا الكتيب بما أراح نفسى وأزاح كابوساً كان جاثماً ومهيمناً على صدرى وحدى ، وكى يتعرف الملايين من البشر على حقيقة الشيوعية ، وكيف تنفذ إلى الشعوب ليأخذوا الحيطة منها ومن أعوانها وعملائها ، ويحاربونها بكل ما هو مستطاع . . .

وأخيراً وليس آخراً . . أود أن أسجل امتنانى وتقديرى البالغ لأفراد أسرتى ، وقد آثروا البقاء معى دفعاً لإتمام رسالتى الموفد من أجلها متحملين مشاق جمة ما بين ظروف عاتية وبين مشاركة وجدانية من شعب كتبت عليه الذلة والمسكنة !

تقديم

بالرغم من أن « كارل ماركس » (١٨١٨ – ١٨٨٣) قد ولد فى ألمانيا فإنه عاش معظم سنوات حياته بإنجلترا ، وهناك ومع بداية الثورة الصناعية شاهد الظلم والاستبداد الذى حاق بالطبقة العمالية ومدى استغلال الرأسمالية الصناعية لهم . . ولربما كان هذا هو العامل الأساسى الذى دفعه إلى وضع نظريته عن « المادية الجدليّة » فيما ناقشه وأصدره فى « البيان الشيوعى » مطالباً بضرورة تغيير نظم المجتمعات البشرية بحيث تصير للطبقة العمالية السيطرة على الحكومات وعلى الموارد الزراعية والصناعية بها . . ولكى يتحقق هذا التغيير فقد دعا « ماركس » إلى ضرورة اتحاد الطبقات العمالية فى جميع الدول بما يؤدى إلى قيام ثورة عمالية عالمية . .

وكانت البلشفية السوفيتية ، بقيادة « نيكولاى لينين » (١٨٧٠ – ١٩٢٤) وهو محام من الطبقة البرجوازية ، أول ما ثبتت هذه النظرية ، فبمجرد إطاحتها لروسيا القيصرية بقيام ثورة عام ١٩١٧ أسس « لينين » أول حكومة شيوعية فى

العالم ، وهى « اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية » ونقل الملكية الزراعية إلى الفلاحين ، فى حين صودرت جميع إمكانيات وموارد البلاد الأخرى كافة إلى السلطة الحاكمة ، والتى لم تتألف سوى من حفنة أفراد ممن قادوا معه الثورة وانتخبوه قائداً للبلاد .

وقد اتسم النظام الشيوعى منذ قيامه بدكتاتورية الحكم فى الداخل وبالسعى لفرض سطوته ونشر مبادئه خارج البلاد ، ولربما قد ساعد على ذلك اتساع رقعة الاتحاد السوفيتى (٢٢ مليون كيلو متر مربع) حيث تمتد من شرق أوربا إلى شمال آسيا بالإضافة إلى تعداده الضخم من السكان وتنوع أجناسهم من الصقالبة إلى المنغول . . ويتضح ذلك جلياً فى التهام الاتحاد السوفيتى لثلاث من دويلات البلطيق قبل قيام الحرب العالمية الثانية ، وبانتهاء الحرب كان أكثر من نصف قارة أوربا فى شرقيها داخل دائرة نفوذه يرزح تحت ويلات الشيوعية ، وذلك عن طريق تواطؤ الأحزاب الشيوعية بهذه البلاد معه ضد حكوماتهم ، حيث عمل الاتحاد السوفيتى على تدعيمهم وتقوية نفوذهم خلال سنوات الحرب وقبلها .

والحقيقة أن أكثر من ٥٠ ٪ من سكان العالم الآن يختنقون بدخان الشيوعية الخانق ، ومع كل فلا يزال السوفيت مستمرين فى سياسة التوسع فى فرض نفوذهم وسيطرتهم على دول العالم أينما سنحت الفرصة وأينما نجحت مخططاتهم . .

ولقد عشت الشيوعية عن قرب بإحدى البلاد التى وقعت فريسة فى مخالب الاتحاد السوفيتى ألا وهى كوبا « لؤلؤة جزر الهند الغربية » كما كانت تسمى دائماً ، ولقد كانت فرصة نادرة كى أدخل إلى هذا البلد المعزول وأعيش به

عامين كاملين كخبير بالأمم المتحدة ، حيث إنه يعيش وراء ستار حديدى لا يدخل إليه أو يخرج منه أحد . . يؤمه فقط رجال السلك الدبلوماسى ولا يعتبرون فى نظر السلطة الحاكمة هناك سوى جواسيس لبلادهم حتى ولو كانوا من البلاد الشيوعية الأخرى ! فالقيود عليهم لذلك كثيرة بما لا يدع لديهم فرصة الاحتكاك بالأهالى للتعرف بعمق على ظروفهم وأحوال معيشتهم ، والغريب أن السياحة بكوبا غير مسموح بها برغم أنها كانت تمثل ركناً أساسياً من الدخل القومى الكوبى . . ومع كل فالسائح القادم لأى بلد غالباً ما تكون إقامته لفترة وجيزة وفى انعزال عن المجتمع تقريباً ، لا يهتم سوى بالاستمتاع والمشاهدة ، بل تعمد مثل هذه البلاد إلى إعطائه صورة منمقة وزائفة لا تمثل الواقع الحقيقى .

لقد عشت الشيوعية بعد ٨ سنوات من عمرها بكوبا ورأيت فيها من الحياة الغريبة ، ما لا يمكن أن يتصورها إنسان لأخيه الإنسان فى أى عصر وتحت أى حكم . . فلقد قام « فيدل كاسترو » بثورته « الاشتراكية » للإطاحة بالحكم الدكتاتورى للرئيس « باتستا » ولإنقاذ الشعب الكوبى من الظلم والفساد الذى ساد البلاد ، فجاء بالشيوعية ليضيف أفانين شتى من الظلم ، بل ليسلب الدهماء الحياة نفسها ، فهرب من هرب ، وهاجر من هاجر ، وقد كانوا بحكم « باتستا » راضين عائشين .

فلقد رأيت بناظرىّ فى النظام الشيوعى كل صنوف الموبقات بما لا تتسع لها المعاجم والموسوعات ، رأيت فيه دكتاتورية الحكم ، الإلحاد ، الجوع ، العرى ، انتهاك الحرمات ، امتهان كرامة الإنسان ، إلغاء الفكر والعقل ، كبت الحريات ، السخرة ، الإرهاب ، وهذا قليل من كثير . . قليل مما سينقلك إليه هذا الكتيب لتعيش مسرح الحياة الحقيقية والأمثلة الحية لموبقات الشيوعية فى

أحد البلاد التي تصادقت هي والاتحاد السوفيتي : وياويل من يتصادق هو وقادته ! فسرعان ما يقع في حبالهم وأذرع أخطبوطهم لتُمتَص دماؤه ويصبح جثة هامدة لا حراك فيها . . إن هدف الشيوعية في نهايته استنزاف خيرات الشعوب واستعباد أفرادها لمصلحة حفنة قليلة تربعت على عرش الكرملين لتنفث سمومها في البشر ولتحسَف كالحية الرقطاء إرهاباً وإذعاناً لها . . كلماتهم جوفاء يكثرون من الزيف ويطنون بالأوهام . . ألا في سبيل المجد . . أحزموا البطون ! وهل ينفع المجد من أشفى على الموت ؟

د . محمد طلعت الإبراشي

أستاذ بالمركز القومي للبحوث

أحلام اليقظة

. . وطئت أقدامنا أرض المطار . . مطار « هافانا » ، وكانت الساعة — حسبما تشير ساعاتنا — الرابعة صباحاً . . ولكم كانت سعادتنا أن نجد فى استقبالنا جمعاً من الزملاء والخبراء ، يتقدمهم « مدير المشروع » الذى سأتعاون فيه . . وكان طبيعيًّا أن توجه قرينتى إليهم عبارات الثناء والشكر على هذه الحفاوة التى تندر أن تحدث فى تلك الساعة المبكرة من الصباح . . وكم كانت دهشتنا بالغة عندما علمنا أن الساعة لم تتجاوز بعد الحادية عشرة من المساء ، فقد رحنا فى ثبات عميق عبر الأطلنطى ، ولهذا لم نفطن إلى الفارق الزمنى بين غرب أوربا ونصف الكرة الغربى . . ومع كل فقد كانت لمحة إنسانية لطيفة ، تلك التى بعثت فينا أملاً كبيرًا فى تلك الحياة المرتقبة على أرض المجهول ، فعلى الأقل زمالة أو صداقة قوامها الحب والتقدير فى بقعة من العالم لا نعلم عنها غير القليل ، والقليل جدًّا ، لا نعلم عنها سوى بعض المشكلات الطفيفة التى قد تصادف خبراء الأمم المتحدة فى كثير من البلاد النامية . . كان المطار « الدولى » خاوياً

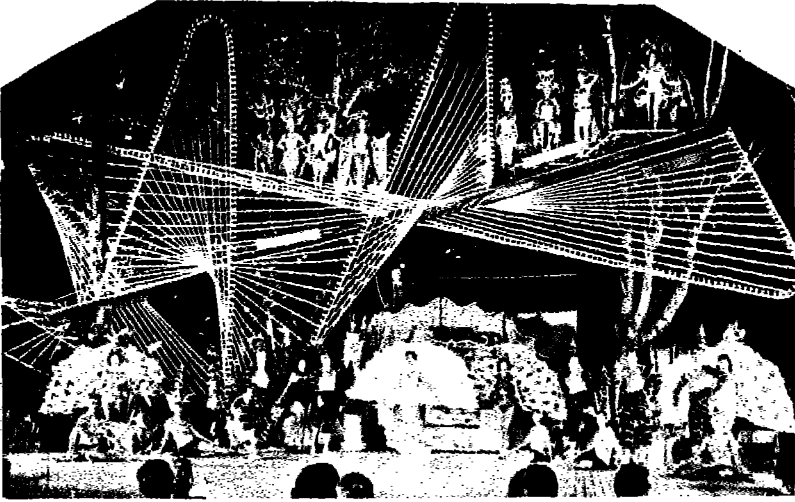
يسبح فى هدوء مستفيض لا ينطلق من أرجائه سوى أزيز إحدى الطائرات ، ولا ينبعث من جنباته سوى بعض الأضواء الخافتة . . رأيت مدير المشروع يتقدم نحو قرينتى ليقدم إليها لفافة ، وعندئذ علّق أحد المستقبلين ، وقد أطلق ضحكة عريضة ، مبيناً أنها لأعظم هدية لقادم إلى هذا البلد ، فهى لفافة تضم عدداً من الشمعات ! . وقد كان هذا أول نذير لما سنقاسيه من متاعب ، ألا وهو انقطاع التيار الكهربائى بمسكننا المرتقب . . وعندئذ تجهمت وجوهنا وتبدلت أسارير الفرحة والابتسامة بيأس ووجوم منقطع النظير ، ورحنا نسير ونحن نجر أقدامنا ونتعثر فى الخطى أتبادل أنا وقرينتى نظرات الحيرة والدهشة ، وكأننا قد قررنا العودة إلى بلادنا ، فلا مجال لمجابهة مصير بضراوته ولا داع للخوض فى غياهب المجهول . .

وهنا توقفنا لتقلنا سيارة « المشروع » إلى المسكن وسرعان ما استعدنا أنفاسنا ودبت الحياة مرة أخرى فى أجسادنا عندما تأكدنا من المبيت بمسكن خاص لا يشاركنا فيه أحد فإننى أعلم مسبقاً مدى صعوبة الحصول على مسكن بهذا البلد ، بل استحالته أحياناً . . وراحت السيارة تشق العنان بالطرقات فى ظلام دامس لا يتطرق إلى آذاننا فيه سوى حفيف أشجار متكاثفة تلاطم أغصانها وأوراقها رياح ضارية ذات زمجرة عالية لم نتعود على سماعها من قبل ، كل الأرجاء من حولنا خالية وكأنها تنذر بشىء غامض يدور رحاه بتلك العاصمة التى كانت ذات يوم « شمخاء » يلتقى فيها رجال الأعمال والمؤلفون والشعراء ومشاهير الممثلين أمثال « هامنجواى » ، « أوناسيس » و« كلارك جيبل » وغيرهم . . ويؤمها السائحون والأثرياء من كل حَدَبٍ وصوب يستمتعون بأعظم بقاع العالم سحراً وجمالاً ، تلك الجزيرة التى تنساب شلالاتها بين قمم جبال « السيراميسترا »

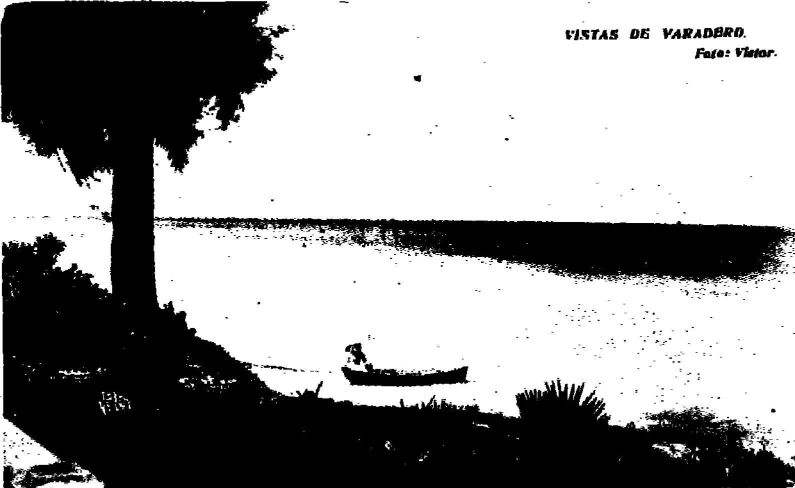
بما يعلوها من أشجار النخيل وجوز الهند . . وأودية خصبة تتخللها كهوف كلسية تنتشر بمداخلها « الأجواكاتو » و« عش الغراب » . . وتظللها غابات قد تعانقت أشجارها وتباينت أحياؤها ، فمن زقزقة الطيور نهاراً إلى درر الحشرات « الوضاءة » ليلا . . حدائق خلابة وبساتين فيحاء تنتشر فى جنباتها كل صنوف الفاكهة والزهور . . الليالى الصاخبة والفنادق الفخمة ذات الشهرة العالمية مثل « براديرو » و « الناسيونال » و« لاس أمريكاز » فإنها تسحرك بجمالها وثرائها الفريد ، وتنقلك إلى أجواء أمريكا اللاتينية وما تتميز به من الرقصات الخالدة والحية . . السمبا ، الرمبا ، تشاتشاتشا ، وموسيقى الطرب والمرح ، تصدح وتنساب مع نسمات الليل العليل بما يشنف الآذان ويعيد للقلوب نضارتها وللألباب راحتها (انظر الشكل رقم ١) .

وتطل الحمامات الخاصة على البحر الكاريبى بمياهه الرقراقة الصافية ، ذات التدريج الطيفى بكل ألوانه الزاهية ، وبأحيائه المائية النادرة ، ولعل رحلة صيد فى عبابه قد تأخذك إلى عالم غير عالمنا وإلى حياة غير التى تألفها . . بلاجات وشواطئ تكسوها خضرة يانعة وتمتد بين جزوع أشجارها أراجيح أو شباك النوم المعروفة هناك بـ « الآماكاز » تستطيبك استرخاء وتأملاً فى ملكوت السموات والأرض وعظمة الخالق . . « سانتا ماريا » ، « صلادو » ، « براديرو » و« باراكوا » (انظر شكل رقم ٢) أسماء يسيل لها لعاب المصطاف ويرن صداها ليملأ أرجاء الدنيا جميعاً شغفاً واجتذاباً لرؤيتها والتمتع بمباهجها .

وقد تأخذك قدماك إلى مناطق « صوروًا » (شكل رقم ٣) ، « ترينيداد » (شكل رقم ٤) ، « جواماه » كى تنعم بأكواخ الهنود الحمر ، سكان البلاد



(شكل ١) – « تروبيكانا » ، أشهر وأرقى الملاهى الليلية فى العالم . كان يسيل ذكر اسمه لعاب الأثرياء وباحثى المتعة والصخب من كل صوب وحدب .



(شكل ٢) – شاطئ « فراديرو » ، أجمل شواطئ العالم وأشهرها ، كنموذج للشواطئ الكوبية بما تكسوها من خضرة يانعة . . لقد أصبح الآن يفتقر إلى وسائل الراحة والخدمة السياحية .



(شكل ٣) – منطقة « صورُوا » بمدينة « كانديلاريا » حيث سحر الطبيعة الاخاذ وشلالاتها الرقراقة . . لم يعد يستمتع بها غير بعض الأجانب المقيمين بكوبا وكبار رجالات الحزب الشيوعي الكوبي . وقد حرم الكوبيون وسكان المعمورة من رؤية أجمل بقاع العالم .



(شكل ٤) — أحد شوارع مدينة ترينيداد من أبنية القرن السادس عشر تعبيرا عن الفن الأسبانى القديم . . ولقد اختفت صورة هذا البائع الجائل الذى كان مظهراً عامًّا من مظاهر الخير والحياة الكوبية الرغدة ، حيث كان يحمل إلى الأهالى حيث يسكنون ما قد يحتاجون إليه يوميًّا من شتى ألوان الخضر والفاكهة الطازجة من القرى المجاورة

الأصليين ، وببصمات التاريخ وأول استكشافات « خرستوف كولومبوس » للعالم الجديد .

استيقظت من أحلامى التى أخذتنى إلى هذا العالم البعيد ببعض ما كان فيه من ماض جلل حين ربت على كتفى مدير المشروع معلناً وصولنا إلى المسكن . . إنه يبدو كبيراً وشامخاً ، وفى ظلمة حالكة رحنا نتحسس الطريق إلى بابه ، وما إن دخلناه حتى همت قرينتى بتجهيز إحدى الشمعات المهداة سائلة إياى ولاعتى إيذاناً بإشعالها ، ولكم كانت فرحتنا شديدة عندما ضغطت على أحد أزرار الإنارة لنفاجأ بالنور وقد ملأ كل ركن فيه ، ولنشاهد بريقاً متألقاً لأول مرة منذ

مغادرتنا مطار « مدريد » بإسبانيا .

وكما كنت أكثر الزملاء حظًّا فى العثور على مسكن منذ الليلة الأولى ، فلقد اكتشفت فيما بعد أننا كنا أكثر حظًّا أيضاً بهذا المسكن الذى لم ينقطع فيه التيار الكهربائى طوال العامين اللذين عشناهما هناك ، ولعل السبب أننا كنا جيراناً لأحد مكاتب الحزب الشيوعى الكوبى فى هذه المنطقة « شارع ١٨ من حى ميرامار » .

حي « ميرامار » بين الماضي والحاضر

لم أنم تلك الليلة بطبيعة الحال ، فلقد أخذت مسبقاً قسطاً كبيرًا من النوم بالطائرة ، ومع بزوغ شمس الصباح وجدت نفسى تواقاً إلى رؤية ما يحيط بالمسكن ، فلقد أيقنت للوهلة الأولى أننا فى حى راقٍ ، وكما علمت فيما بعد أنه حى « ميرامار » أرقى وأجمل أحياء « هافانا » ، وما المسكن الذى نقطنه سوى قصر صغير لثرى سابق ذى حديقة لم يبق منها غير نافورة من المرمر الطبيعي وقد هجرتها المياه والحياة بلا رجعة . . ولا يسكن حي ميرامار حاليًّا سوى خبراء الأمم المتحدة ، وأعضاء السلك الدبلوماسى ، وكبار أعضاء الحزب الشيوعى الكوبى » .

ولايزال حي ميرامار يطوى بين جنباته أقاصيص وأقاصيص يرودها بعض الناس ترحماً وشوقاً إلى الماضى ، ولقد كانت تطرب لها نفسى عند سماعها ، بل يأخذنى الفضول كثيرًا إلى التقصى عن حقائق الأمور وخفاياها ، وعندما كنت أقارن الماضى بالحاضر . الماضى بعظمته ورونقه ، والحاضر بظلمه وكآبته

فسرعان ما تعترينى الهموم ويستبد بى الوجوم . . إنه لظلم الإنسان لأخيه الإنسان . .

فهذا هو أحد المواطنين « السنيور سوارز » (٧٠ سنة) لم يكن بليونيرًا فحسب ، بل كان أيضاً سفيرًا مرموقاً لبلاده ، تنقل بين العواصم الأوربية الكبرى ، ويجيد من اللغات الحية ما لا يقل عن ٧ لغات . . لديه ثقافات واسعة ، ويهوى الكثير من الفنون والآداب . . ذهنه زاخر بالمعلومات وعقله كأنه « بوتقة » كبيرة انصهرت فيها شرذمة ضخمة من « دوائر المعرفة » ، تطرب لمجالسته وتهلع لذكائه . . يتصيد الأجانب لعله يضيف إلى معلوماته وثقافاته ما قد حرمته منها أيام الغدر والنقيصة وما قد فاته طوال سِنى الذل والهوان ، فلم يعد فى متناول يده - كبقية المواطنين - أية إمكانية لاقتناء كتب حديثة ذات قيمة ، أو إمكانية الاطلاع على صحف أو مجلات غير كوبية ، بل محظور عليه مجرد الاستماع إلى أية إذاعات أجنبية . .

لقد كان لديه مزرعة تزيد على ٥ آلاف هكتار (أى حوالى ١٢ ألف فدان) بها من الزراعات والمحاصيل البستانية الاستوائية ، كالموز والمانجو والأناناس والدخان ، ما يدر عليه ثراءً بثراء . . كان يمتلك ٩ قصور وما يزيد على ٣٠ سيارة فخمة من ذوات المحركين كالاولدزموبيل ، الكاديلاك ، الشيفورليه وما شابه ، وإمعاناً فى التفاخر وحب التغيير فلقد علمت منه أنه كان يقوم بتغيير لون سياراته بين العشية وضحاها وكأن الثلاثين أصبحوا ستيناً ! كان يستمتع بثلاث طائرات خاصة بالإضافة إلى اليخوت المتعددة التى كان يخرج بها لأغراض النزهة والصيد ، كان لديه أسطول بحرى يمخر عباب الأطلنطى ناقلا أحجار المرمر الطبيعى من منجم والده بكوبا كى ينحت ويشكل على هيئة تماثيل بمدينة

« روما » حيث كانت والدته الإيطالية فنانة تعمل بفن النحت وتمتلك معرضاً ذائع الصيت لهذا الغرض هناك ، وتعود التماثيل لتباع إلى أثرياء كوبا ، بل إلى كل من يهتم باقتنائها من أغنياء الأمريكتين.

لقد ولّى كل هذا الثراء وأصبح حالياً صفر اليدين ، يعيش فى أصغر قصوره التى أقفرت حديقته الآن ولم تعد سوى خراب تؤمها الحشرات والجرذان ، لقد تركت له الدولة سيارة واحدة أصبحت هيكلا يعلوه الصدأ ولا تجد الأنوار والكشافات إليها سبيلا . . لم يتبق بالقصر من الأثاث الفاخر والسجاد « العجمى » والنجف « الباكراه » والفازات « السيفر » والألواح الزيتية الأصيلة من أعمال « فان خوخ » و« رومبراندت » و« ليوناردو دافنشى » وما شابههم سوى أقل القليل ، أو بعبارة أخرى « عينات » لما كان يقتنيه به . لقد استحوزوا على كل ما يمتلك وقرينته « السنيورة مارجوت » (٥٥ سنة) من مجوهرات ، تاركين لهما فقط بعض المقلدات « المزيفات » منها والتى كانت تستخدم لأغراض التمويه ضد السرقات . . ولقد علمت من سوارز أن هذه « العينات » قد حرر بها قائمة رسمية باعتبارها أمانة ! لا يتصرف فى أىّ من مشتملاتها ولو بالإهداء إلى الغير ، بل تظل فى عهدته وقرينته إلى أن تلحق بأيهما المنية أيهما أبعد . . ولتعلم ، أيها القارئ العزيز ، أنه لا حقوق لإرث شرعى حتى وإن كان له أولاد ، فهذا هو التشريع العام للبلاد الآن ، أو بالأصح التشريع « الشيوعى » أينما وجد هذا النظام ! ولقد روى لى سوارز أنه كان فى حاجة ملحة إلى تغيير إطارات سيارته ودهان مدخل قصره بالزيت ، ولقد قايضته الدولة فى نظير تحقيق ذلك بإحدى النجفتين المتبقيتين بالقصر كله بعد الاستيلاء وتقدر قيمتها وحدها بما لا يقل عن ٢٠ ألف دولار ، فقط مثل هذه الظروف هى التى يمكنه

فيها التصرف مع الدولة بما لديه من هذه المتبقيات وبهذه الصورة من الابتزاز . .

ولقد حرص « فيدل كاسترو » رئيس الوزراء ورئيس الحزب الشيوعى الكوبى الحاكم على مصاحبة لجان « الجرد » وخاصة إلى الشخصيات البارزة والثرية ليتعرف بنفسه على ما يمتلكون وليحظ بفرصة الاختيار الأولى لاستحوازه الشخصى على ما قد يروق فى عينيه من هذه الممتلكات قبل أن تعبث بها أيدى رجاله من أعضاء الحزب ، وليؤكد بنفسه شماتته ، وليطوى صفحة من صفحات الماضى بالمهانة والإذلال دون أى تمييز أو تفرقة ، قد يكون محقاً فى ذلك تجاه بعض الأفراد الانتهازيين أو ممن ضربوا بعرض الحائط مصالح البلاد العليا — أمثال جينوفيفو داميرا ، كارلوس سالادريجاس وقليل غيرهم وقد لا تخلو منهم بعض المجتمعات فى كل أوان ومكان غير أن هذه الشخصية — شخصية السنيور سوارز — كانت دائماً وأبدًا عظيمة حتى فى أحلك أيامها ، فلقد عرفته عن قرب بل قد علمت من مصادر كثيرة — بعضها عن كبار الحزب الشيوعى الحاكم ذاته — أنه ممن ساعدوا فيدل كاسترو ماديًا ومعنويًا على قلب نظام الحكم السابق إيماناً بضرورة التخلص من فساده والإطاحة بدكتاتورية « باتستا » الرئيس السابق للبلاد ، ولولا مساندة « الحزب الجمهورى الحاكم » فى العهد السابق ، وسوارز من أكبر وأبرز رجاله ، ما تم لفيدل كاسترو وجماعته تحقيق مخططهم . .

ولا أدل على عظمة هذا الرجل وارتباطه الشديد بأرض بلاده من أنه لم يطلب الهجرة كما فعل الكثير ، بل أخلد ضميره إلى الله وعاش ببلاده مستكينًا ليقاسى أعنف إرهاب سياسى عرفه التاريخ الحديث ، وليقضى ما بقى من حياته تحت وطأة المجاعة والإذلال والمهانة ، لقد كان فى إمكان السنيور سوارز أن يترك

البلاد ليعيش لاجئا سياسيًّا بالولايات المتحدة الأمريكية ، وخاصة أن أرصدته تملأ بنوكها بالإضافة إلى أنه كان مجندًا بجيش الحلفاء فى الحرب العالمية ، وبإمكانه أيضاً أن يتجنس بالجنسية الايطالية نسبة إلى أمه الايطالية وبحكم فوابيها ، وله من أرصدته بالبنوك الإيطالية هناك أيضاً ما يمكنه من العيش أكرمه ومن الحياة أفضلها ، ولكنه رغب فى أن يظل بكوبا مسقط رأسه حتى توافيه المنية فيدفن فى أرض جدوده وأسلافه . .

ولما انتهى كل شيء وسلبَ ما سلب ، وهمّ فيدل كاسترو بالانصراف مع لجنته « الموقرة » ، لجنة الجرد ، توجه إلى السنيور سوارز مؤكدًا بكل شماتة أنه لم يعد لديه شيء حتى يتعيش منه ، وهكذا كان يجب أن يعيش دائماً ! إلاّ أن صديقنا السنيور سوارز أفهمه بأن هناك شيئاً ثميناً لم يفطنوا إليه ولن يمكنهم الاستيلاء عليه ما حياهم الله ، ألا وهى حياته الماضية بكل ما فيها من فخر واعتزاز وإرضاء للنفس وإيمان بالله ! . . بهذه المعانى ، وبهذه الفلسفة العميقة تمكن السنيور سوارز والكثير من أمثاله من البقاء وقلوبهم وعقولهم مليئة بذكريات الماضى البعيد ، الذكريات الحلوة العطرة يستنشقون من أريج هوائها النقى ما ينبض قلوبهم ويبعث فيها الحياة ، حياة غضة متفائلة بقدرة وعظمة الخالق ، وبأن لكل ظالم نهاية ، عاجلة كانت أم آجلة .

ولتعلم يا عزيزى القارئ . . أن هديتى لهذا السنيور العظيم عندما كنت أتوجه لزيارته قدلا تتعدى « قميصاً » أو زوجاً من الدجاج أو كيلو جرام من السكر أو قليلا من البن برغم أنه يقيم ببلاد السكر والبن !

وكثيراً ما كان يتردد عن قبول سيجارة « مستوردة » عندما أهم بتقديمها إليه على سبيل المجاملة لأنه يدرك مسبقاً مدى عجزه عن مبادلة هذه المجاملة ، ومع

الإلحاح الشديد يذعن لرغبتى ويتقبلها ، وقد علت وجهه أسارير غريبة قد تدرك منها خليطاً لعزاء الماضى وصحوة الحاضر ، وبدون وعى أراه وقد راح يشمها بنهم شديد قبل إشعالها وكأنه يستعيد رائحة الماضى البعيد بكل ما يحمل من ذكرى . . وعلى الفور تتهدج أوداجه ، ويسحب ساعة جيبه الذهبية من صداره المهلهل يحملق فيها بكل عظمة ، ثم ما يلبث أن تمتد قدمه تحت منضدته التى يفضل دائماً الجلوس إليها ليقرع جرساً ثبت زره تحت نُمرُقها . . فتأتيه « مارجوت » باسمة طائعة فهى بالنسبة إليه كل شىء ، قرينته ، ابنته ، خادمته . . يطلب منها أن تأتيه ببعض «الألبومات» التى لا يزال يحتفظ بها بمكتبته بالدور العلوى . . وما إن تطويها ذراعاه حتى يروح يقلب صفحاتها وكأنه يبحث عن شىء معين ، وفجأة يهز رأسه متنهداً مشيرًا بأصبعه إلى إحدى الصور ، وموجهاً الحديث إلى مارجوت لعلها تتذكره عندما كان يدخن سيجاراً فخماً من سيجارات « هافانا » الشهيرة ! وعندئذ تومئ له برأسها وتتنهد تنهيدة عميقة ومليئة بالحسرة تتركه فى أعقابها ليحملنا معه إلى حياته السابقة وما تسجله الصور من حقائقها !

وسيجار « هافانا » الشهير لا يباع الآن بكوبا ، ولا حتى « بالمحل الدبلوماسى » ، لقد حرصت الحكومة الحالية على إنتاج كمية محدودة منه تخصها للتصدير حفاظاً على هذه السمعة العالمية ، أما المواطنون البؤساء فليس أمامهم سوى الخيار بين ثلاث من السيجار الصغير « سيجاريوس » المليء بثقوب « سوسة الدخان » أو علبتين من السجائر أسبوعيًا للفرد المدخن ، مما أدى إلى إقلاع الكثير عن عادة التدخين ، تفضيلا عن الزج بهم إلى غياهب السجون . . فياويل من تسول له نفسه محاولة الشراء من « السوق السوداء » . . برغم توافر

النقد لديهم ، والذى أطلقوا عليه ما يعرف « بالورق » أو « بابل » بالإسبانية ، فالنقود لا قيمة لها على الإطلاق ، فكل سلعة محددة الكمية بالنسبة للفرد ، ولا يسمح بتجاوزها تحت أىٍّ من الظروف . . ويا ليتها كانت كافية ، بل هى — وللغرابة — مجرد « عينات » قد تثير الشجون ولكنها لا تشبع الجوع ، خذ مثلا السكر ولا تنس أيها القارئ العزيز أننا نتحدث عن بلاد السكر ! فللفرد ما قيمته رطل واحد شهريًّا ، وإذا علمت أنه يشرب السكر بالقهوة وليس العكس ، كعادة اجتماعية متأصلة ، لأدركت ضآلة هذا المخصص . . بل هناك حرمان تام لكثير من السلع الغذائية الأساسية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر . . الموالح والدجاج مخصص فقط للمرضى بالمستشفيات ، الألبان مخصصة للأطفال دون السابعة ، البصل والثوم فبالرغم من زراعتها بكميات وافرة فهى من « الممنوعات » غير القابلة لمجرد العرض أو لمجرد التعرف عليها ، فهناك من الأجيال الحالية ما يجهلها تماماً لا لشىء إلاّ لأنها من الصادرات الأساسية للاتحاد السوفيتى ، ولما عرف عن السوفيت من ولع شديد بمثل هذه المحاصيل وأهميتها فى حياتهم اليومية . . . وأما المياه الغازية فهى مطلقة ولكنها فى نفس الوقت مقيدة ! مقيدة بما يسترجع من الزجاجات الفارغة . . وللمياه الغازية قصة غريبة فى كوبا . .

فلقد تعمدت الدولة إيقاف إنتاجها من المياه الغازية لمدة قاربت العام . . وعند إلقاء فيدل كاسترو لخطابه السنوى فى احتفالات الثورة لعام ١٩٦٦ طالبته الجموع المحتشدة بالعودة إلى الإنتاج ، فالمياه الغازية شىء ضرورى لحياتهم ، فهى التى تطفئ نار ظمئهم بتلك البلاد الاستوائية الحارة ، خاصة وأنهم يفتقرون إلى الماء الصالح للشرب وسرعان ما أرجع السبب إلى النقص الشديد فى

العبوات الفارغة نتيجة حدوث أعطال خطيرة بأجهزة أكبر مصانع الزجاج بكوبا ، فعرض عليه المواطنون فكرة تسليم ما لديهم من زجاجات فارغة كحل مؤقت للمشكلة فرحّب بالفكرة ووعدهم بتسليمها إليهم مَلأًى . . وقد ظل هذا الوعد حتى لحظتنا هذه يرن فى آذانهم كلما جفت حلوقهم ، وما أكثر ذلك مع كل لفحة حر ، ومع تصاعد العرق على الأجساد فى كل آونة ! إنه فى الواقع أحد آلاف الوعود . . الوعود البراقة التى لم ولن تتحقق فى أى مجال ، بل أضافت اهتزازًا تلو الاهتزاز وزعزعة تلو الزعزعة لثقة شعب فى رئيس حكومته ، فلم يعد هناك من يستجيب أو حتى يتفاءل .

وفى جولة بقصر « السنيور سوارز » وبين ذكريات الماضى البعيد مررت معه بتمثال صنع من المرمر وبالحجم الطبيعى لأنثى جميلة عارية ، محاط بقوائم من الزجاج الشفاف ، وقد علمت منه أنه لصديقة إيطالية كان قد تعرف إليها وهو فى الثانية والعشرين ولم يوفق إلى الزواج منها لاعتراض والده ، وفى عودة لها إلى معرضها بروما طلبت والدته من هذه الفتاة أن تعمل « موديلا » به ونحت لها ثلاثة تماثيل كان هذا التمثال أحدها ، فلقد أهدته إلى ابنها الوحيد تعاطفاً وتقديراً لمشاعره . . وعلى سبيل المزاح مع « مارجوت » ، وكانت تشاركنا هذه الجولة ، تساءلت عن مدى احتمال شعورها بالغيرة تجاه هذه الأنثى التى تعيش معها تحت سقف واحد ، ولكنها باعتداد وثقة كبيرة بالنفس أفهمتنى أنه كان فى مقدور السنيور سوارز أن يتزوج ليس فقط من صاحبة التمثال بل من أية أنثى أخرى إذا ما أراد بحكم الوضع المادى والأدبى المرموق اللذين يتمتع بهما ولهذا فهى تعتقد أنها أفضلهن جميعاً لأنها الوحيدة التى استهوته وعاشت معه طوال هذه السنين دون أن تنجب له أطفالا . . ثم إن صديقته القديمة تعيش مسجونة بين

أربعة جدران زجاجية ضيقة ، أمّا هي فتعيش « مسجونة » ولكن بين أربعة جدران أرحب ، وهنا كدت أنثنى احترامًا وإجلالا لفلسفتها فلم يفوتها الوصف الحقيقى للحياة المقيدة واللا إنسانية التى يعيشها غالبية أفراد الشعب الكوبى حاليًّا عندما عبرت ولا إرداديا عن « سجنها » داخل أربعة جدران أرحب . . فهى لا تقصد بالقطع القصر الذى تعيش فيه وإنما تقصد فقدان حرية الإرادة وحقها فى الحياة الحرة الشريفة .

وكوبا فى الواقع سجن كبير قد ملئ بالأبرياء والشرفاء فذاك « دكتور ريفيرا » (٦٠ سنة) أحد الأطباء الجراحين والبارزين فيما قبل الثورة الكوبية ، قد بدأ يتحدث معى بعد اطمئنان بالغ وبعد فترة زمنية غير قصيرة عرف عنى فيها — بل تأكد بصفة قاطعة — أنه ليس لدىّ أى ميول سياسية على الإطلاق وإنما الذى يحدد مدى حكمى على الأمور هو التحليل العلمى العميق والدراسة الفكرية المقننة وغير المنحازة ، وهذا فى الواقع هو أسلوب كل من يعمل فى مجال البحث العلمى الخلاق لأنه يعتمد فى المقام الأول على التعرف الدقيق على الأسباب الحقيقية للمشكلة المعنية حتى يكون البحث عن الحل بعد ذلك مجديًا وقاطعاً ، وما قد يكون إيجابيًّا لمشكلة ما قد يكون سلبيًّا لأخرى .

ولقد فهمت من الدكتور ريفيرا أنه فى انتظار موافقة مسئولى الهجرة بالدولة على طلب هجرته وأسرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد تقدم بهذا الطلب منذ ٧ سنوات مضت وقد تمتد إلى أكثر ، ودائماً ما يتم التبليغ بهذه الموافقة بصورة مفاجئة ليتم الرحيل ربما بين ليلة وضحاها ، وأنه من شروط الموافقة عدم مغادرة البلاد بشهاداته أو بأوراقه الدالة على خبرته الفنية فى عمله أو مجال تخصصه والتى يحتاج إليها للدولة على مزاولة مهنة الطب ببلد المهجر .

والسر يا عزيزى القارئ من وراء تأخير إصدار الموافقة طوال هذه السنوات مع وضع هذا القيد العجيب – واضح . . فلا ترحمه الدولة ولا تترك له رحمة الله . . فحرمانه من مستندات التخصص وشهاداته تدفع به إلى عمل قد يكون عضلياً ومع السن المتقدم يفقد هذا العمل المضنى أيضاً ، ومن هنا لا يجد أية فرصة للبقاء ببلد المهجر . . ولذلك راح يتوسل إلىّ مستعطفاً أن أرسل أوراقه إلى أحد أصدقائه من أهل المكسيك حتّى يمكنه بعد مغادرة البلاد أن يتحصل عليها منه كى يبدأ حياته من جديد وليتعيش بمهنته الشريفة فى بلد المهجر . .

وبالمناسبة فإن « ميامى » بفلوريدا تضم حالياً جالية ضخمة من الأفراد والعائلات الكوبية أبت أن تعيش فى بلادها بعد إعلان الشيوعية كنظام سياسى للدولة فى عام ١٩٦٤ . . ولقد شجعت الولايات المتحدة الأمريكية – ومنذ الوهلة الأولى – الهجرة إليها من الأفراد الكوبيين وخاصة المهنيين منهم وأرباب الحرف وذوى الخبرات الفنية فى كل قطاعات الإنتاج والخدمات . . بل خصصت خطًّا للطيران اليومى وبالمجان بين شاطئ فراديرو « بكوبا » و « ميامى » بفلوريدا لمسافة لا تزيد عن ٩٠ ميلا . . ولما أحست الدولة الكوبية باستنزاف الكثير من أبنائها من الفنيين والشباب فيما لا يزيد عن عام واحد بدأت تضع القيود على الهجرة . . ولكن بعد فوات الأوان ! فلم يعد بكوبا اليوم من ذوى الخبرة والمثقفين إلاّ القليل والنادر ، وأصبحت الغالبية العظمى من مسئولى الدولة فى مواقع العمل لا تتعدى حديثى السن ، بل معدومى الكفاءة والخبرة من أعضاء الحزب الشيوعى الكوبى . . ولتعجب كثيراً يا عزيزى القارئ عندما تعلم أن الرئيس الحالى لجامعة هافانا « العريقة وذات السمعة العلمية فيما مضى » شاب لم يتجاوز الثلاثين من العمر ، ولتعجب أكثر عندما تعلم مثلا أن رئيس

القسم الذى كنت أعمل فيه بكلية العلوم طالبة بالسنة النهائية ولا يزيد سنها عن الثانية والعشرين برغم وجود من يكبرها سنًّا ، بل من الخريجين حقًّا ، ولقد تزداد عجباً أن تعرف أن الطالب بالجامعة قد يكون مسئولا عن التدريس بها أيضاً نتيجة النقص الحالى فى عدد أعضاء هيئة التدريس ، فطالب السنوات النهائية يقوم بالتدريس لطلاب السنوات الأدنى ، فلا هو بطالب ذى تحصيل ولا هو بمدرس كفء . . وهكذا تسير الأمور فى جميع قطاعات وأجهزة الدولة ، فالسند الوحيد للتنصيب بالوظائف الكبرى والمسئولة هو انتماء الفرد للحزب الشيوعى الحاكم ، وشتان بين الأفراد « الحزبيين » و « اللاحزبيين » . . والانتماء لعضوية الحزب ليس اختياراً حسبما يرتضيه المواطن بمحض رغبته بل تكليفاً ، وللتكليف قصة طويلة . . بدايتها منحة يطلق عليها « منحة السعادة » !

منحة السعادة فى بلاد الشقاء !

هى منحة تقدمها الدولة لكل عروسين جدد ، مؤداها أن يقضى العروسان ثلاثة أيام ولياليها بأحد الفنادق الكبيرة حسبما يقع اختيارهما عليه . . يفعلان كيفما يحلو لهما ويأكلان ويشربان كيفما تشتهى أنفسهما دون أى قيد أو حدود . . وفى نهاية الفترة يتم اختيار كل منهما لهدية واحدة ولتكن ماكينة حلاقة ، وبلوزة وما شابه .

ولقد شجعت هذه المنحة الشباب من الجنسين على الزواج لمجرد الاستمتاع ولو المؤقت بالحياة . . فليس هناك دافع من الحب أو الهيام ، بل هناك دافع من العوز والفقر المشترك . . ولهذا قد يشتد الخلاف بعد انقضاء مدة المنحة وينفصلان ، وسرعان ما يتزوج كل منهما بفرد آخر ، وهكذا تتفرع العملية ويتسع مداها ، وقد عرفت عن إحدى السيدات اللائى عملن معى بالجامعة أنها قد تزوجت من ٧ رجال وكانت لم تتجاوز وقت ذاك الخامسة والعشرين من عمرها . .

وقد يترتب بداهة على هذه الزيجات « المتعددة » إنجاب أطفال وهذا هو بيت القصيد والمغزى الأساسى لمنحة السعادة !

فما مآل تلك الأطفال ؟ الآباء فى انفصال مستمر والأسرة لا رابط ولا استقرار لها . . إذن فالدولة هى الراعية لهؤلاء الأطفال فهم أولادها أو بالأصح أولاد « فيدل كاسترو » ويطلق عليهم بالإسبانية « البيكادوز » .

ولقد حققت لهم الدولة بيوتاً تستوعبهم فى جميع مراحل نموهم المختلفة منذ الحضانة حتى التخرج فى الجامعة . . وهذه البيوت هى فى الواقع قصور فخمة مما استحوزت عليها الدولة من الأثرياء . . يعيشون فيها معيشة الأمراء ، ويأكلون ما لذ وطاب ، ملاعقهم وأطباقهم من الفضة « الاستيرلنج » وكئوس شرابهم من الكريستال « البكراه » ، يرتدون الحرير ويفترشون أفخر الفراش ، لهم كل اللهو والمرح ولا يعترفون بلوم أو سأم . . فهم نتاج منحة السعادة ويجب أن يظلوا فى تلك السعادة ! . .

وتنشئهم الدولة نشأة عسكرية منذ الصغر ، وبالانعزال التام عن المجتمع والأهل يلقنون — وباطمئنان بالغ — كل ما يصوره لهم قادة الحزب الشيوعى الكوبى . . إيمان صادق بالسوفيت وبالمبادئ الأساسية للشيوعية ، بل فى المقدمة وقبل أى شيء الإيمان الراسخ والصادق بشخصية فيدل كاسترو ، فهو منقذ البشرية من الدمار والفقر والعوز ، منقذ البشرية من الاستعباد والسيطرة ، منقذ البشرية من ويلات الروحانيات والأديان (انظر الشكل رقم ٥) ، فالإنسان صانعها أما كاسترو فهو الإله الأكبر والجبروت الأوحد ، فهو المحرر للشعوب من براثن الانتهازيين بكل بقاع الدنيا ، وهو دافع النهضة العلمية ،



(شكل ٥) – الكنيسة « الرئيسية » بمدينة « بيامو » الكوبية من الداخل ، والكنيسة واحدة من الآلاف التى أغلقت الآن تدعيماً للإلحاد ومحاربة الأديان وكبتاً لحرية العقيدة .

ومدعم التكنولوجيات ، ورائد محو الأمية . . إلخ ما يتردد فى معجم الحزب الشيوعى الكوبى !

وتأكيداً لألوهية فيدل كاسترو لدى النشء والأجيال فإن لجنة خاصة من وزارة التعليم تتجه فى اليوم الأول من العام الدراسى إلى مدارس المرحلة الابتدائية لتلتقى بالأطفال الجدد بالصف الأول ، سواء كانوا من « البيكادوز » أبناء الدولة أو غيرهم من أبناء المدارس العامة ، وتطلب منهم كل على حدة أن يغمض عينيه ليطلب من « الله » تحقيق هدية يتمناها ، ويفتح عينيه لا يجد بالطبع هذه الهدية . .

وتكون اللجنة قد رصدت ما خصصه الأطفال من تلك الهدايا قرين كل

اسم منهم ، وفى يوم لاحق تعاد الكرّة وقد أحضرت اللجنة مجمل هذه الهدايا لتسأل كلاًّ منهم أن يغمض عينيه وليتوسل هذه المرة إلى « كاسترو » كى تتحقق أمنيته فهو الإله الحق ، وهو الخير ذاته ، وهنا يفتح الطفل ناظريه ليجد الهدية التى تمناها ماثلة بين يديه ! .

هكذا يتلقى الطفل أول دروسه بالإلحاد والإيمان . . بالإلحاد لأنه لغى وجود الله ، وبالإيمان بفيدل كاسترو لأنه الملكوت الحق ولا سواه ، وبهذا ينشأ الطفل وتترعرع معه هذه المعتقدات ، وتعتبر التقارير الواردة من مشرفى المدارس ومفتشى وزارة التعليم ولجان الحزب الشيوعى الكوبى هى الفيصل النهائى لترشيحه من عدمه لعضوية الحزب ، فإن كان مخلصاً وفيًّا فى المقام الأول لشخص كاسترو كلف عضوًا عاملا فى الحزب وكان من الصدّيقين ذوى السلطان والجاه ، أما إذا اهتزت تقاريره كان من الضالين ذوى الذلة والمسكنة !

وإذا تفحصنا عبارة « منحة السعادة » نجد أنها تصريح ضمنى من الدولة — حسبما يشير المعنى — بأن الحياة الكوبية فى مجملها حياة شقاء ومذلة ، وأن الدولة تهب الأفراد تلك الأيام الثلاث السعيدة كمنحة للخروج وقتيًّا من هذه المحنة . . ولو تعمقنا فى مضمون « منحة السعادة » لوقفنا على حقيقة تجسيدها « للماديات » تطبيقاً لنظرية « المادية الجدلية » لكارل ماركس ومنافاتها تماماً « للروحانيات » أو « المذهب المثالى » . . فلقد جعلوا من الزواج متعة للجسد ، ونفوا قدسية الحب والعواطف فيه ، وجعلوا من الأبناء مجرد نتاج وزيادة تعداد ونفوا الرابطة المقدسة والروحية بين الآباء والأبناء . . بثوا عن طريقها الإلحاد والعبودية المادية « لفيدل كاسترو » فهو مانح السعادة وعاهل هؤلاء الأبناء ، ونفوا العلاقة الروحانية والأبدية بينهم وبين الخالق عز وجلّ . .

محو الأمية ودكتاتورية كاسترو

لعل الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانت نموذجاً حيًّا لفيدل كاسترو عند قيامه بثورته فى ٢٦ يوليو ١٩٥٩ ، فلقد كانت مبادئها الواضحة تأخذ لباب فكره حتّى إنه أراد من توقيت قيام الثورة المصرية توقيتا لقيام ثورته الكوبية ولكنه لم يوفق إلاّ بفارق ثلاثة أيام فقط ، ولإيمانه خلال سنوات الثورة الأولى – وقبل تغلغل النفوذ السوفيتى فى الحكم بعد معركة « خليج الخنازير » المشهورة فى أواخر عام ١٩٦١ – بضرورة خلق وعى جماهيرى عام كمنطلق يساعد على تقدم ورفعة شأن بلاده ، فقد حرص منذ اللحظة الأولى على « محو أمية الشعب الكوبى » ، وقد كان له بالفعل ما أراد . . ففى عام واحد (عام ١٩٦١) تمكن فيدل كاسترو أن يفاجئ العالم أجمع بأعظم تجربة ناجحة عرفها التاريخ الحديث فى مجال « محو الأمية » ، ولربما سيذكر له التاريخ هذا العمل الجليل كعمل قومى مجيد بل « الأوحد » لبلاده منذ توليه سلطة الحكم فى البلاد ، ولكن . .

بنظرة تحليلية فاحصة للوضع الاجتماعى الحالى ومظاهر الحياة هناك ولنظام الحكم الدكتاتورى الذى يعم البلاد وخاصة لدكتاتورية كاسترو الشخصية والتى فاقت دكتاتورية كل من « هتلر » و « موسيلينى » – يمكن التعرف وببساطة على أن محو أمية الشعب الكوبى كانت من العوامل الرئيسية التى ساهمت فى ترسيخ وتدعيم هذه الدكتاتورية.

فكاسترو – فى حقيقة الأمر – يحكم شعباً ضد إرادته الحرة، بل ضد طبيعة البشر.. يحكم شعباً من خلال سيطرة واستغلال أجنبى لأسياد وقادة بالكرملين.. فكيف يتم له ذلك إن لم يكن بالدكتاتورية وبالحديد والنار، وخاصة مع شعب لم تمح أميته أبجديًّا فحسب بل – كما أيقنت – ثقافيًّا بالدرجة الأولى.. إنه يُعامل شعباً مثقفاً يمكنه بسهولة ويسر تحليل الأمور، ويمكنه لو أعطى فرصة الحكم الديمقراطى والتعبير الحر عن إرادته أن يناقشه، بل يرده إلى صوابه، ففيدل لا يريد ذلك، لا يريد أن يسائله أحد أو حتى ينطق ولو بلفظة بوركيه؟ أى « لماذا؟ ».. فهو يريد أن يقول « كن، فيكون ».

إنه – فى اعتقادى الشخصى – لنادم الآن على « اقترافه » هذا العمل القومى العظيم.. ألا وهو محو الأمية! فلم يكن يتوقع أن ذلك سيصبح يوماً ما عاملاً من عوامل الإحساس العام بل التيقن التام بدكتاتوريته وبمدى استغلال قادة موسكو لمقدرات الشعب الكوبى، ولو كان يعلم ذلك مسبقاً لما أقدم عليه بالمرة.. وربما كان ندمه هذا هو السبب الرئيسى فيما بعد فى عزل شعبه وجزيرته عن العالم الخارجى بثقافاته المتعددة وتطوراته الاقتصادية والاجتماعية المختلفة فى محاولة لدحض ثقافة الشعب الكوبى، والعمل على رده إلى دياجير الجهالة، بما يكفل الطمأنينة ويضمن الرضا والاستسلام إلى الأبد.

الستار الحديدى وعزلة الشعب الكوبى عن العالم

لقد ألغيت السياحة بكوبا برغم أنها كانت مصدراً رئيسياً بل ركناً هاماً للدخل القومى الكوبى قبل الثورة ، كما حرصت الرقابة على المصنفات الفنية على اختيار نوعيات معينة من الأفلام الأجنبية التى تعرض بالبلاد ، فكلها تدور إما فى فلك التاريخ القديم أو الانعزالية التامة عن مظاهر التطور والمدنية الحديثة مثل أفلام « حصار طروادة » ، « سجين زندا » ، « أحدب نوتردام » ، « المومياء » المصرى والذى تدور حوادثه ، كما نعلم ، بعيداً عن العمران ! وقد حدث ذات أمسية أن اصطحبت قرينتى لمشاهدة فيلم « الملاك الأزرق » وهو من الأفلام الأمريكية التى لا تزال أحداثه وقصته الخالدة تعلق بذاكرة الكثيرين منذ الخمسينات ، ولقد أدهشنا أن يتم عرض الفيلم فيما لا يزيد عن ٤٠ دقيقة ، فقد حرصت الرقابة الفنية بالطبع على استقطاب كل ما يثير فى نفس المتفرج من شجون المرح وما قد يسيل اللعاب ، فالفيلم تدور معظم حوادثه داخل النوادى الليلية الأمريكية بما يكثر فيها من مظاهر الثراء واللهو والاستمتاع بصنوف الطعام

والشراب ، وهى بالطبع من الممنوعات بالنسبة لأفراد الشعب الكوبى ! وقد حدث مرة وفى أثناء مشاهدتنا لأحد الأفلام – حفاظاً على تسلسل الأحداث – أن اضطر الرقيب إلى عدم حذف مشهد ظهرت به مائدة وعليها أحد الديوك الشهية ، فسال لعاب الرواد بل سمعنا أصوات « الروال » تنبعث من أفواههم ، صغاراً كانوا أوكباراً ، نساءً أو رجالاً .

وامتداداً لهذه العزلة القاتلة ، فهناك تعليمات مشددة بعدم الاختلاط حتى بالأجانب المقيمين داخل كوبا ، فبالاختلاط يتعرفون منهم على أحوال بلادهم السياسية والاقتصادية وظروف المعيشة فيها وما قد يطرأ عليها من تقدم أو تطور عصرى تكنولوجى . . فلا غرابة إذن أن تجد منّ يعملون تحت إشرافى العلمى وهم يتجنبون ملاقاتى خارج أسوار الجامعة ، وكأننى « حيوان أجرب » ، ولا يعترفون بإقامة علاقات اجتماعية معى أو أسرتى !

وأتذكر مرة فى بداية قدومى إلى هافانا أن وجهت الدعوة إليهم لقضاء أمسية بمسكنى لتناول العشاء مع أسرتى على أنغام الموسيقى الشرقية . . ولم أفهم حين ذاك معنى تلك النظرات الزائغة التى راحوا يتبادلونها إلاّ عندما جاءنى أحدهم فى اليوم السابق للموعد المحدد ليعتذر عن عدم إمكانهم الحضور لسبب لم أقتنع به ، ومع كل فقد تركت لهم حرية تحديده فى موعد لاحق . . وبانقضاء فترة امتدت إلى ما يزيد عن الشهر – بما أنسانى هذا الموضوع تماماً – فوجئت بتحديد الموعد فى اليوم التالى لما أعلمت فيه ، وقد فهمت فيما بعد أنه من المحتم فى مثل هذه الظروف الاضطرارية والاستثنائية أن يحصلوا على « ترخيص » رسمى بتلك الزيارة ، بدايته إخطار رئيس القسم الذى نعمل فيه بالجامعة لينتهى بموافقة « رؤول كاسترو » شخصياً وهو شقيق لفيدل كاسترو حيث يدخل هذا

الموضوع فى نطاق اختصاصاته ومسئولياته . . وللحصول على موافقته لابد أن تسير الأمور خلال قنوات إدارية طويلة ومعقدة للغاية تضمن اتخاذ كل التدابير والإجراءات الكفيلة والمحققة لإحكام الرقابة والإنصات داخل مسكنى وخارجه ، وكتضمين لهذه التدابير فلقد فوجئت بمصاحبتهم لشخصين لم يسبق لى مشاهدتهما ، وقيل لى إنهما زميلان لهم بأحد الأقسام الأخرى بالجامعة ، ولهما رغبة ملحة فى استمتاعهما بالموسيقى الشرقية وما قد يقدم من أطباق مصرية . . وكان لهما بالطبع ما أرادا .

ودار الحديث فى مجمله بالطبع فى مثل هذا الحفل المتواضع عن تباين الموسيقى فى الغرب والشرق ، ولو أننى أفردت بعض الحديث عما أنبثق حول تاريخ السيمفونية وتطورها منذ بدايتها كمجرد « افتتاحية موسيقية » للاوبرات الإيطالية والفرنسية والتى تأثرت بالتالى بأسلوب الغناء العربى ، ثم « السرينادات » التى كانت تعزف فى ليالى الصيف البديعة بفينا بالنمسا تحت نوافذ الحسناوات ، « السوناتات » « ليوحنا سباستيان » والد « باخ » ، وكان للناى والكمان العربى أثرهما البالغ والأساسى فى تطور السيمفونية إلى أن أخذت صورتها النهائية فى الهارمونى « أى التوافق الموسيقى » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كما هو واضح فى موسيقى جوزيف هايدن ، موزار ، فان بتهوفن ، بما يميزها الآن من الموسيقى الشرقية والتى لا تلتزم بهذا التوافق .

وأتذكر أن أقحم أحد الغريبين نفسه عندئذ بالحديث فجأة عن محو أمية الشعب الكوبى ودور كاسترو الكبير فى نشر الثقافة فى ربوع الجزيرة حتى إن الكثيرين من سكان « السيراميسترا » والذين عاشوا فى جبالها فى عزلة تامة عن مظاهر المدنية والحياة العصرية قد اعتقدوا عندما جاءوا إلى هافانا العاصمة لأول

مرة فى حياتهم ورأوا « النجف الكهربائى » يتألق فى مبانيها ليلا أنها « النجوم » بالسماء وقد اقتربت من الأرض ! ولولا زعامة كاسترو وفضل الثورة الكوبية العظيمة ما عرف هؤلاء الناس معنى وطعم الحياة البشرية الحقيقية التى حُرموا منها هم وأسلافهم زماناً طويلاً !

وعلى الفور ، أيقنت أن هذا الحديث « المفتعل » ما هو فى الواقع إلاّ بداية لاستدراجى فى جدال قد يؤدى إلى الخوض فى أمور سياسية أنا فى غنى عنها ، بل تتنافى بالطبع مع قيود وظيفتى كخبير « دولى » ، ولهذا لم أنبس ببنت شفة ، وكل ما أبديته أننى أومأت برأسى وكأننى أعبر عن مدى الدهشة والغرابة لهذا الوضع الشاذ ، وبما قد يوحى أننى قد أصدقته القول ! . . ومن هنا لم أعطه الفرصة للاستطراد بل انتقلت مباشرة بالحديث إلى موضوع آخر وهو الرقصات وكيف أن الرقص « الشرقى » يتميز أساساً بتحريك الأجزاء الدنيا من الجسم ، على النقيض من الرقص « الهندى » والذى يعتمد على الأجزاء العليا ، وسرعان ما علقت إحدى الحاضرات بأن « الكوبى » أو الرقص اللاتينى فهو يجمع ما بين الاثنين أى بتحريك كل أجزاء الجسم ، ومع الضحكات الرنانة والتى أعقبت هذا التعليق المعبر عن الحقيقة استأذن الغريبان فى الانصراف ، وما لبث أن أعقبهما الجميع وكأنهما قد أعطيا الإشارة والتنبيه بإنهاء وقت الزيارة أو بالأصح فض هذا « التجمهر » !

وكانت الساعة لم تتجاوز بعد العاشرة .

الذلة والمسكنة تعم طوائف الشعب !

وإذا كان فيدل كاسترو قد قام بثورته ضد حكم « باتستا » احتجاجاً على الظلم والتعسف وانتشار الرشوة والفساد والمحسوبية ، وإنقاذاً لجموع الشعب الكوبي من الإقطاع والاستغلال ، وخاصة للطبقات الكادحة من المثقفين والمهنيين والعمال وصغار الفلاحين ، (كما جاء في كتابه « سيغفر لي التاريخ » والذي صدر في كوبا عام ١٩٦٩) عازماً على حل مشاكل الجماهير في الزراعة والصناعة والإسكان والبطالة والتعليم والصحة مع إعادة الحريات والديمقراطية السياسية استناداً على خمسة قوانين ثورية تضمنتها وثيقة قيام الثورة منذ معركة « معسكرات المونكادا » والتي باءت بالهزيمة والزج به في السجن . . فلقد حاد كلية عن تحقيق ذلك وكان للنفوذ السوفيتي في الحكم بعد معركة « خليج الخنازير » كما أشرنا سلفاً الأثر الكبير والبالغ في القضاء على كل القيم الإنسانية بل سارت الحياة الكوبية في طريق مسدود تضاعفت فيه كل صور الظلم والفساد ، بل الامتهان لكرامة الإنسان الكوبي فذاق الأمرين . . ذاق الظلم بالاستبداد ،

والرشوة بالعوز ، والبطالة بالجوع الزؤام ، والاستغلال بالاستعباد ، وتفاقمت المشاكل نتيجة لإقرار واستتباب نظام الحكم الشيوعى الدكتاتورى بالبلاد ، وتحويل كل الطاقات المادية والبشرية لخدمة مصالح السوفيت ومن يساندونهم من السلطة الحاكمة وكبار رجال الحزب الشيوعى الكوبى . . وإذا كان المثقفون والمهنيون والعمال وصغار الفلاحين قد ألمّ بهم بعض قصور الحكم السابق لفيدل كاسترو فهم يعانون اليوم أضعاف الأضعاف ، بل الكبت السياسى وكل صنوف الإرهاب والاستنزاف الروحى والمادى ، ولهذا فقد افتقد الشعب الكوبى غالبية هذه الفئات الكادحة بالهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبعض بلدان أوربا وخاصة إسبانيا ، بعد تفاقم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بكوبا ، بما يستحيل معها مجرد استنشاق الهواء أو التظلل بالغابات ، فقد تلوثت كل أرجائها بل سمائها بكل أنواع السموم والموبقات ، واندلعت من كل فج كل صنوف الأفاعى والوحوش الكاسرة التى راحت تنهش أبدان الفضيلة وروحانيات الحب والتعايش السلمى . . نفوس قد ملأها الحقد وأعمتها الملذات والشهوات عن بصيرة الإيمان والإخاء ، قيود مكبِّلة للأطراف تمنع حتى التضرع إلى الخالق عزّ وجلّ ، وتقذف بالأبرياء وطالبى الرحمة إلى نار متقدة ، تعلو ألسنتها لتصيب وتقضى على كل ما قد يتبقى حولها من الصخر والفولاذ . .

لقد تحجرت القلوب وغضت الأبصار عن عيون زائغة وأجساد محطمة ، تطلب الرحمة وتشحذ العطف ، وتنتظر الغوث من العرى والضنى ، والانتشال من وهدات الظلم والتعسف وتحقيق الشىء اليسير من الوعود الخادعة والبراقة التى سرى صداها ليملأ كل مشارق الأرض ومغاربها ولو بإلقاء البعض النذير مما قد امتلأت به بطون القادة وأولى الأمر من رجال الحزب الشيوعى الكوبى بما قد

يبعث ببصيص الأمل فى عودة الروح والتئام الجروح .

وإذا كان « السنيور سوارز » وأمثاله من الأثرياء قد حق عليهم الذلة والمسكنة ، فإنهم – كما رأينا – يعيشون حاليًّا البقية الباقية من حياتهم على ما تحمله صدورهم وعقولهم من أنقاض الماضى ، وقد تعينهم هذه الأنقاض العاتية القوية على تحمل الصعاب – بما تضفى الألباب – بما تحمله من ذكرى تساعدهم على السلوان وعلى التغلب على المشاق – بما تكل لها الأجساد – بما تحويه من أحلام اليقظة فهى لهم دائماً بالمرصاد يرتشفون منها ماء الحياة ويستطيبون فيها الهواء .

إذن ، فما ذنب تلك الأجيال التى استقبلتها الحياة بكل ما تحمل من أوهان ، لا ماضى يؤازرها ولا حاضر يقيمها ، لا ذكرى تنسيها ولا حقيقة تعينها .

الطفولة المعذبة !

فها هو ذا الطفل « ريكاردو » (٩ سنوات) يهوى المجىء مع بعض الرفاق إلى « حى ميرامار » كى يجدوا الفرصة ليتلاقوا مع أمثالهم من أبناء الأجانب حيثما ينطلقون لهواً ولعباً ، وقد يحالفهم الحظ أحياناً فيقتاتون منهم بعضاً من الحلوى أو ما شابه ، وكثيراً ما تردهم على أعقابهم دوريات الأمن التى تجوب الشوارع فيندبون حظهم ويلعنون مأساتهم .

وذات يوم وقد حمل ابنى بعضاً من « الطوفى » فجاءه « ريكاردو » هذا يستعطفه فى قطعة منها أو اثنتين يتقاسمها هو ورفاقه وكانوا ثلاثة ، وما إنْ همَّ ابنى بإعطائهم كل ما فى جعبته منها حتى فوجئ بأحدهم يقدم إليه ألعوبته

« كمقايضة » ، فتملكه حزن شديد وشعر بمزيد من الحنين والعطف على هؤلاء الأصدقاء البؤساء ، فقد أرادوا أن يضحوا بألعوبتهم « الفريدة » فى سبيل بعض الحلوى البسيطة !

إنها حقًّا متواضعة ومن النوع السائد فى البلاد . . فهى صناعة كويية ، وإن اختلفت ألوانها ، فالطعم واحد ، مجرد أقراص سكرية ملونة . وهنا رفض ابنى ويكل إباء هذا العرض « المغرى » وترك لهم الحلوى دون مقابل . . مصمماً — وجدانيًّا وفى قرارة نفسه — على المزيد من العطاء ، وخاصة مما ستتناوله يداه من مختلف أصناف الحلوى والشيكولاتة الراقية التى ما زلنا — وقت ذاك — فى انتظار وصولها من « الدانيمرك » ضمن شحنة قد سبق لنا أن أرسلنا فى طلب استيرادها ، فلقد كان مسموحاً لنا كخبراء بمنظمة دولية استيراد كل احتياجاتنا من الخارج معفاة من الضرائب والقيود الجمركية .

وأغلب الظن أنه كان يعلم مدى الحرمان الذى يعيشه هؤلاء الأطفال ، ويعلم أيضاً أن نصيب كل طفل من هذه الأقراص السكرية سبعة أقراص فقط أسبوعيًّا ، كما يحدده « دفتر تموين » أسرته . . كما أنه يعرف جيداً مدى ما يتكبده الآباء فى سبيل شراء مثل هذه الألعوبة ، فقد يصل سعرها المحلى إلى ما يقرب من ٤٠٠ « بسو » كوبى (أى ما يعادل ٤٠٠ دولار أمريكى) برغم أنها ، يا عزيزى القارئ ، صناعة صينية ولا تتعدى ذلك النوع المعروف « بالألعوبة ذات الحركة الاحتكاكية » وبما لا يزيد سعرها فى محلاتنا التجارية هنا فى مصر عن جنيهين أو ثلاثة على أكثر تقدير . . هذا ولا يصرح لمثل هذا الأب بشراء ما قد يحتاج إليه من أمثال هذه السلع إلاَّ إذا اعتبر من الـ « ديستنجويدوز » أى « الممتازين » حسبما تشير التقارير السنوية إليه . . وهنا أحب أن أشير إلى أن

الفرد الكويتى لا يعد ممتازاً إلاّ إذا حرص على حضور الاجتماعات الدورية والعديدة التى ينظمها الحزب الشيوعى الكوبى فى مكان عمله أو خارجه ، بالإضافة إلى مواظبته على القيام بما يسمى « بالعمل التطوعى » ، وسيأتى الحديث عنه فيما بعد ، فهذه الأنشطة قد تمثل ما يقرب من ٨٠٪ من مجمل التقدير السنوى بما لا يترك حافزاً لعمله الأصلى ! .

وبعودة مليئة بالحسرة والكآبة راح ابنى يناقشنى فيما حدث بينه وبين أصدقائه من الكوبيين ، وكأنه يستميحنى عذراً لرفضه تلك « الغنيمة » مقابل ما قدمه لهم من حلوى ، فلقد أحسست بالمرارة تعتلى أسارير وجهى ، وبالحزن يدب فى قلبى ، بل طفرت عيناى بالدموع حينما عبّر ابنى « الطفل » عن ارتياحه الكامل لهذا التصرف الإنسانى ورفضه للمقابل « المادى » فالحياة فى أعماقها وأساسياتها « روحانيات » قبل أن تكون « ماديات » ، فإن المقابل كانت سعادته برؤية هؤلاء الأطفال وقد انقشع عن وجوههم الوجوم ليحل محله الحبور ولو للحظة بسيطة لشىء بسيط ! وهنا تأكّد لى أن ما بدر منه كان إحساساً لا إرادياً بمدى الظلم الواقع على هؤلاء الأطفال الأبرياء ، وأنه كان إحساساً عطوفاً من مجرد إنسان لأخيه الإنسان برغم أنه يعلم أنهم « علمانيون » لا يعترفون بوجود الخالق . . فالعمل للإنسان والدين لله وحده . . ولعلك تعلم ، يا عزيزى القارئ ، أن الحرمان لشىء خطير وخطير جداً ، فهو يدفع دائماً إلى الحقد ، والحقد بالتالى يؤدى إلى الإيذاء . . وقد يؤكد قولى هذا موقفان جرت أحداثهما على أرض ومسرح تلك الجزيرة المنكوبة . . أولها ، عندما خرج طفلى ليتعرف إلى البعض من أبناء الأجانب ممن يجاوروننا بحى ميرامار ، وكان ذلك بعد قدومنا ببضعة أيام إلى هافانا ، ولكم كانت دهشتنا بالغة أن عاد يهرول بعد

دقائق معدودة ، وقد تمزقت ملابسه وعلت وجهه بعض الخدوش الدامية . .
فلقد كان أول لقاء له بريكاردو ورفاقه ، ويبدو أنه كان يجهل تماماً أن هذه « الحفاوة » لمن أولى سمات التعارف الكوبي ! فلكي يتقبلوه صديقاً لابد أن يتفق معهم فى المظهر العام ، ولعلهم قد أصدروا قرارهم منذ الوهلة الأولى بضمه إلى رفقتهم ، فوفروا علينا عناء البحث له عن ثياب رثة أو أسمال بالية تروق فى أعينهم ، ولا تبعث فى نفوسهم تلك المشاعر العدوانية . . وحتى لا تنفصم عرى هذه الصداقة فقد حرص طفلى دائماً على ارتداء ما قد أسميناه « بالملابس الكوبية » !

وثانيهما ، عندما خرج ابن لأحد أفراد العاملين بسفارتنا ليشارك الأصدقاء الركوب « بدرّاجة » قد استوردها له والده لتوها فطلب منه أحد الأطفال من زمرة « ريكاردو » أن يستعملها لجولة قصيرة واحدة ، وما إن تملكتها يداه حتى راح يجوب بها الجولة تلو الأخرى بما زاد عن العشر . . ولما ضاق بالابن اضطر فى النهاية إلى نهره واستردادها ، وما لبث أن وجد نفسه فريسة شهية « لكلب » ضخم شرس كان يصطحبه « كارلوس » أحيانا عندما يجيء إلى حى ميرامار لعله يجد فى نفايات « البيكادوز » مرتعاً خصباً يعوضه الكثير عن فترات الجوع التى غالباً ما تطول . . فلقد استشاط الطفل غضباً وامتلأ حقدًا ولم يكد أن يصيح بلفظة « كوهيلو » (أى أمسك به) حتى انقض الكلب على الابن انقضاض الأسد ويبدو أن بدانة الابن كانت كافية ، بل مغرية كى ينفذ الكلب هذا الأمر دون هوادة ! فلقد تشبثت أنيابه « بسمانة » رجل الابن ولم تتركها إلا وقد انتزعت جزءًا منها لينعطف بها الكلب ويلتهمها بعيدًا عن الصراخ والعويل الذى انبعث من الابن المسكين ليملأ أرجاء حى ميرامار صراخا وأنينا . .

لقد كاد يفقد الابن ساقه لما ألم بها من مضاعفات خطيرة وجمة لولا أن طلب والده من الحكومة المصرية نقله للعمل بإحدى سفارتنا بدول أوربا لمداركة أمر علاجه بها ، وقد استجيب إلى طلبه فورًا تاركًا الجزيرة بكل ما فيها من أهوال وأمور عجاب !

المثقفون والمهنيون يتضورون جوعاً !

. . وهذه هى الطبيبة « أوديلسا » (٣٥ سنة) والتى جاءت إلى مسكننا « خلسة » كى تعالج وترعى قرينتى التى أصيبت فجأة بأحد أمراض الحساسية ، والذى يصاب به عدد غير قليل من سكان الجزيرة نتيجة لارتفاع درجات الحرارة والملوحة والرطوبة النسبية التى قد تصل إلى حد التشبع فى معظم أيام السنة بهافانا ، بالإضافة إلى كثرة حبوب اللقاح التى تتطاير فى الجو قادمة من الغابات المتبقية والتى تحيط بهافانا . . فلقد قاست قرينتى الكثير من هذا المرض العضال ، ومرارًا نصحها الأطباء بالمستشفى المخصص للخبراء الأجانب بترك الجزيرة كعلاج أكيد لهذا المرض ، ولكنها أبت أن تتركنى وحيدًا بهذا البلد العجيب أؤدى واجباتى الوظيفية تحت ظروف معيشية ونفسية لم أعهدها من قبل . . وهنا كان لزاماً عليها أن تتوجه يومياً إلى مقر المستشفى لتتناول « مصلا » خاصًا قد يساعدها على تخفيف حدة هذا المرض ، مما كان يضطرنى إلى توصيلها وإرجاعها بسيارتى « الخاصة » بما لا يدع لى وقتاً كافياً للعمل . . حقيقة أن المستشفى يبعد حيث نسكن بنحو ٤٥ كيلومتراً ولكن تلك المسافة لم تكن لتمثل أى مشكلة لنا على الإطلاق ، فنظام المرور بهافانا ، بل بالجزيرة كلها ، يعد من أرقى النظم العالمية ، فلا يزال يحتفظ بطابع وبصمات الولايات المتحدة

الأمريكية بما أقامته الخبرة الأمريكية لهم قبل الثورة من أنفاق قد تمتد أميالاً تحت الكاريبي ، وبما دعمته به من الإشارات الضوئية الأوتوماتيكية . . أضف إلى هذا ، الهدوء القاتل والملحوظ بالعاصمة حيث تقل أعداد المارة وتندر السيارات الخاصة بأنحائها ، وقد تخلو الطرق أحياناً اللهم من بعض الشاحنات أو الحافلات « الأوتوبيسات العامة » وقد اشتد زحامها وخاصة فى ساعات الذروة من النهار حيث ينتقل العاملون من وإلى أماكن أعمالهم . . ومن هنا لا يمكن محاكاة هافانا « العاصمة » حتى بأهدأ « الضواحى » فى أى بقعة من العالم خلوّ المدينة تماماً من محلات ومخازن العرض ، امتلاء الشوارع ومنعطفاتها برجال الأمن وسيارات اللاسلكى ، انعدام الحياة والعلاقات الاجتماعية بجميع صورها ، الافتقار إلى الروابط الأسرية . . إلخ . وقد يقبع الناس فى بيوتهم أياماً لا يغادرونها إلاّ غراراً أو اضطرارًا هروباً من وطأة الشمس المحرقة ، أو من غيلات « السيكلونات » أو الأعاصير المدمرة .

لقد كانت الإجراءات الإدارية المعقدة والروتين المرير بما تتميز به الحياة ومظاهر الإدارة الكوبية لمن أكبر وأهم العوائق فى حياتنا اليومية هناك ، فقد تقضى قرينتى اليوم بأكمله بالمستشفى لمجرد تطعيمها بالمصل ! ولما كنت حريصاً على الالتزام بواجباتى الوظيفية هناك ورغبتى الملحة فى إنجاز أعبائى الموكل بها من المنظمة الدولية فقد كان لابد من البحث عن حل جذرى لهذه المشكلة ، يوفر لى الوقت للعمل من جهة وأخرى ، يضمن سلامة وراحة قرينتى التى أصرت على البقاء وثابرت على تحمل الآلام والشقاء . . ولكم كانت سعادتى عندما لاح هذا الحل فى الأفق ، فلقد أرشدنى أحد الأصدقاء من أعضاء سفارتنا هناك إلى الطبيبة « أوديلسا » فهى تتسم بالمهارة وبحبها وتفانيها فى خدمة مرضاها حيث

تشبعت بخصال والدها الحميدة دكتور « أرماندو » (طبيب سابق مشهور) وتعرف تماماً أن مهنة الطب هي مهنة إنسانية بالدرجة الأولى . .

وجاءت أوديلسا فى إحدى نوبات راحتها من العمل بالمستشفى الذى تعمل فيه وبعد أن أدت مهمتها الطبية خير قيام وطمأنتنى عن صحة قرينتى . . وبضرورة تغيير العلاج بما يؤكد الإسراع من تخفيف الآلام طلبت منها تحديد الأجر . . وعلى الفور انتصبت قائمة من حيث تجلس وتحولت وداعتها ورقتها إلى ثورة عارمة راحت خلالها تقذف وتبعثر بكل ما تحمله جيوب ثوبها وحقيبة يدها من « بابل » ، كما راحت تتمتم بأصوات تحشرجها أنات البكاء وبما لم أفهم منه سوى رفضها للنقود ورغبتها فيما قد يشبع جوعها . . بل إنها لا تمانع فى إعطائى كل ما تمتلكه من نقود فى سبيل ما يرد رمقها ، ولما سألتها عما تفضل ، حددت طلباتها فى « قطعة » من الدجاج ، علبة أو اثنتين من صلصة الطماطم ، وبصلة واحدة ! . . وكان لها بالطبع ما أرادت ، بل مُلئ لها « جراب » اشتمل على أصناف شتّى مما نحتفظ به « بالكرار » من معلبات محفوظة كنا قد استوردناها بالإضافة الى زوج من الدجاج . . وأصدقك القول يا عزيزى القارئ فى أنه لم ولن يصادفنى إنسان فى حياتى وقد امتلأ قلبه فرحاً ووجهه ابتهالاً بمثل ما رأيت فى قلب ووجه هذه الطبيبة ، وخاصة عندما تأكدَت من جدية هذا العطاء والذى اعتبرته فريدًا لا يُشَقّ له غبار !

وكادت تروح « أوديلسا » فى غيبوبة من فرط السرور وذهول المفاجأة ولكنها سرعان ما احتوت بين ذراعيها الجراب بما حمل وكأنها تخاف فقدانه أو استرداده ! وما إن اطمأنت إلى حيازته حتى وجدتها تطلب منى وبإلحاح أن أوصلها إلى مسكنها بسيارتى الخاصة لا لشىء إلا لتتجنب ما قد تتعرض له من

مشاكل فى الطريق إذا ما شوهدت حاملة هذه « الممنوعات » بما يؤدى بها حتماً إلى السجن !

ولقد تجادلنا طويلا حول هذا الموضوع ، وأفصحت لها عن مدى خطورة هذا الموقف ، وكيف أنه يتنافى وضرورة احترامى لتعليمات ونظم الدولة التى أعمل فيها حتى ولو كنت غير مقتنع بها ، وهنا حاولت إقناعى بأن ما أقدمت عليه ما هو إلا أ[illegible]ـرف حتمى اقتضاه شعورى المخلص ومدى حرصى التام على أداء مهام وصيفتى التى أوفدت من أجلها ، وضماناً للتفرغ لها كل الوقت بما يعود فى النهاية بالصالح على الدولة الكويتية .

وعليه فقد طلبت إليها الانتظار وحتى حلول الظلام إمعاناً فى توفير أكبر قدر من الأمان والطمأنينة . . لقد كانت مسافة قصيرة لا تتعدى فى جملتها ثلاثة أميال ، ولكن ما أصابنى من ارتباك شديد جعل قيادة سيارتى أشق قيادة عرفتها آنذاك فلقد كدت أرتطم بكل ما يصادفنى فى الطريق . . أعصابى فقدت ولم أعد أتمالكها ، وخُيل لى أنّ العيون جميعاً تلاحقنى ، والأصابع كلها تشير نحوى ، ولم أتنفس الصعداء إلاّ عندما أحست أوديلسا بما اعترانى ، وقد رأت العرق يتصبب من جبينى ، فطلبت منى عند أحد المنعطفات أن أتركها ، فلم يبق نحو مسكنها غير القليل ، إلاّ أننى قد لاحظت توقفى فجأة فى مجال أحد أعمدة مصابيح الإنارة وكان مضيئاً ، وسرعان ما لمحت عن كثب أحد الأعمدة وقد كسر مصباحه فلم يسعنى وبدون تردد سوى أن أتركها فى دائرة ظلماته .

لقد عدت إلى المنزل أدراج الرياح ، وبت الليل قائماً لم يطرف لعينىّ جفن ، رحت أضرب أخماساً فى أسداس ، فلعل أحدًا قد رآنى ! ومع أننى أستبعد حدوث أى مواجهة أو مساءلة لى حسبما بدر إلى ذهنى عند تلك المجادلة

التى دارت بينى وبين « أوديلسا » منذ ساعات إلاّ أن ذلك قد لا يمنعهم من إرسال تقرير إلى المنظمة الدولية تتضمنه مظاهر هذا الحدث ، ولا أحد بالطبع يدرى ما قد ينطوى عليه من مبررات تختلق أو إبداء أسباب لا ترتبط بالواقع أو بالدوافع الحقيقية إلى ما انتهينا إليه . . إن « تريسيتا » (٢٥ سنة) تلك المرأة الشابة التى تعمل على تدبير شئون مسكننا هى الوحيدة التى لازمت هذا الموقف بل هى التى قامت بتجهيز « الجراب » وتقديمه إلى « أوديلسا » عندما أذنت إليها بذلك ، فهل يمكن لها وتحت أىّ من الظروف أن تبوح لهم بما حدث ؟ . . إنها لإنسانة رقيقة القلب تنم خلجات عينيها عن مرارة دفينة وحزن عميق ، فهى لا تتحدث إلاّ غرارًا بل تعمل فى صمت وبكل ما أوتيت من قوة ، لا تبدى كللاً أو تتذمر تعباً ، طائعة مهذبة ، تثير الشجون والعطف لدى كل من يراها من الأصدقاء والزملاء ، تراها بين الحين والآخر وقد انطلقت بأفكارها إلى العنان وكأنها تتمنى أن تقيم معنا الليل كله تسهر على راحة طفلينا . . تمدهما بكل ما تستطيع أن تقدمه الأم الحنون من رعاية لأطفالها وبما قد يعوضها عن الفراغ « الروحى » الذى تعيشه اليوم المرأة الكوبية بين أنقاض الأسرة المتهاوية ، فياضة تواقة مشاعرها إلى رؤية أسرة ترابطت أواصرها وعمّ الحب والوفاء بين أفرادها ، تعيد إليها حقها وإحساسها فى الوجود ، وتسترد من خلالها ما سلبت إيّاه بل افتقدته إلى الأبد من كيان وطبيعة قد خلقت من أجلها وترعرع فى ظلالها . . ولقد بادلناها حبًّا بحب ، وعطفاً بعطف ، وإخلاصاً بإخلاص أعم وأشمل . . كما لم نبخل عليها بزاد أو كساء فلها ما تستطيب وعنها ما لا ترتضيه ، ولكم أحست بالطمأنينة وقد ملأت نفسها ، ولكم شعرت بدفء الحياة ينبض فى قلبها ويسرى فى عروقها ، ولكن هيهات ! . فسرعان ما سيتبدد كل شىء

وسيندثر كل ما هو مشرق ، فالغروب قادم لا محالة والعودة إلى الظلام لا مفر منها ، فهل لها أن تصطحبنا إلى حيث نستقر ببلدنا وإلى حيث نحيا بأرض النور ؟ هل لها أن تغادر البلاد معنا لنعيش معاً بأرض الرخاء والحرية ؟ هل لها أن ترافقنا إلى حيث هواء العزة والكرامة ونسمات الحب والوفاء ؟ هل لها أن تنزح معنا إلى حيث تفيض الحياة بالنضال من أجل سعادة الفرد والمجموع وإلى حيث تزخر الحياة بالقيم الإنسانية وباحترام المقدسات ؟ إن أيام السعادة لقليلة وساعات الهناء لمعدودة ماضية ، إنها مجرد خواطر ربما كانت تخالجها ، ولكنه القدر المحتوم . . والمصير الذى لا هوادة فيه ولا هروب . .

إن اطمئنانى إلى « تريسيتا » لعميق ، وثقتى فيها لكبيرة ، فكثيراً ما أفصحت لنا عن المحاولات العديدة والمتكررة التى ينتهجها رجال المخابرات المركزية الكوبية لاستدراكها فى الإفاضة عن أحوالنا وتصرفاتنا ومدى علاقاتنا بالكوبيين وبالأجانب ، وما هى طبائعنا وسلوكنا حتى فى أدق الأمور وترّهاتها ، ومدى انطباعاتها الشخصية نحونا ، وما إلى آخره من الوسائل البوليسية الدنيئة والأساليب النازية المنتهكة للحرمات . . والتى إن دلت على شىء فلا تدل إلاّ على حياة ملؤها النزق والحماقات ، بل التلصص واللا أخلاقيات .

وحسبى أن حياتنا هناك كانت جهداً وعرقاً . . إخلاصاً وتفانياً فى العمل . . لم تمسسها شائبة ، ولم يتطرق إليها أدنى شك ، فهذه هى حياتى كما عاهدتها أينما ومتى وجدت ، وهذا هو أسلوبى كما تعودت حيثما عملت . . ولقد عملت هناك مع مجموعتى البحثية الأصلية بالإضافة إلى تطوعى وبالمجان للعمل مع مجموعة أخرى لأحد الزملاء وقد وافته المنية فجأة إثر حادث طائرة وهو فى طريقه إلى كوبا لتسلّم عمله فى مجال يدخل ضمن نطاق تخصصاتى العلمية . . وبعد فترة

وجيزة من وجودى هناك ونتيجة للمناقشات العلمية التى كنت أحرص على ممارستها وتنظيمها فى صورة « حلقات دراسية » متتابعة كلفت متطوعاً وبالمجان أيضاً للعمل مع مجموعة ثالثة فى مجال انبثقت أهمية دراسته وضرورة تناوله بالبحث كى أقود فى النهاية « فريق بحث متكامل » يعمل فى ثلاثة اتجاهات بحثية متضامنة ، مستهدفاً حل بعض المشكلات الزراعية الخطيرة .

وقد كان هذا بالطبع كفيلاً كى أقوم الجزء الأكبر من الليل ساهراً ، وطوال النهار مقيماً بمعملى ، لا اهتمامات لى غير المضى قدماً بتلك البحوث إلى أهدافها ، وبهؤلاء الأفراد إلى الارتقاء العلمى والفكرى واكتسابهم لبعض الخبرات العملية النادرة بما قد يمكنهم من مزاولة أعمالهم باطمئنان بالغ ، ومن القيام بدورهم بفاعلية تامة فى الارتقاء بنظام التعليم والأساليب البحثية والتكنولوجية ، بجامعتهم بل بما قد يؤهلهم إلى المشاركة الفعالة فى حل مشكلات بلادهم الاقتصادية . .

وحتى تتحقق الفائدة المرجوة ، وجدت من الأصوب الالتحاق بأكاديمية « أبراهام لانكولن للغات » بهافانا كى أتعلم وأجيد اللغة الإسبانية – لغة البلاد الحالية – حيث لا يتحدث الإنجليزية ممن عملوا معى بتلك المجموعات الثلاث سوى فردين فقط مما يؤدى حتماً إلى صعوبة بل استحالة التفاهم مع البقية الباقية منهم . . ولقد استدعى هذا مواظبتى على التواجد يومياً بتلك الأكاديمية لمدة ساعة حددتها فى الصباح الباكر استقطاعاً من وقت راحتى وقبل الموعد الرسمى والمحدد للعمل بالجامعة . . وخلال فترة ما – زيادة فى الفائدة وللتعجيل من الإلمام بهذه اللغة – رأيت ضرورة امتداد هذه الساعة إلى ساعتين ، وكم كانت دهشتى بالغة عندما واجهنى مدير المشروع بتقرير من إدارة

« العلاقات الخارجية » بالجامعة بتحديد دقيق لهذه الفترة التى لم تكن قد تجاوزت الشهرين عند ذاك ، يستنكر تأخيرى هذه الساعة فى مواعيد العمل الصباحية ، متجاهلين بذلك كم من الساعات الطوال التى كنت أقضيها وبصفة شبه يومية بعد ساعات العمل الرسمية بما يأخذنى بالعمل فى الجامعة إلى ساعات متأخرة من الليل ، بل بتضحياتى الكبيرة فى العمل فى أثناء نهايات الأسبوع وكلها دون أى مقابل مادى . . فكم يضنى النفس حقًّا ويشقيها ، وقد اعتادت حياة الحرية المقرونة بأداء الواجب والالتزام به ، أن تجد قيود الغدر وما لبثت تكبلها وتكيل لها من الشرور أعتاها . . فهذه فى الواقع هى سمات تلك البلاد ؛ مقابلة الإحسان بالإساءة ومواجهة التضحيات بالغدر ونكران الجميل ! . . وإنه لمن أقسى الأمور على النفس البشرية ، بل أعنفها فى الوجود أن يستشعر الفرد الحر والعيون له بالمرصاد ، تلاحقه فى حركاته وسكناته خاصة ممن لا يعرفون معنى الحرية المسئولة أو يقدرون مقنناتها أو ممن لا يبالون بالعمل الفنى ومدى احتياجاته إلى صفاء الذهن وارتياح السجية بما يؤدى إلى الخلق والإبداع . . فهل لى أن أتجاهل هذه الحقائق وأتقبل ما حدث بما يحمل من إساءات لشخصية علمية لها قدرها ووزنها على المستوى العالمى ؟

كان من الضرورى إذن مواجهة المسئولين ومصارحتهم بكل هذه المشاعر ، وكان لزاماً تفنيد هذه اللاأخلاقيات وإظهار رفضى المطلق لها بكل إباء واعتزاز ، بل اتخذت قرارًا حازماً بترك البلاد فورًا وأنا غير آسف أو متردد إن لم يعدلوا عن هذه التصرفات النابية وهذه الأساليب الشنعاء تجاه فئة من العلماء جاءت خصيصًا من بلادهم لتساهم فى رفعة شأن الإنسان وتأكيد حقه فى الوجود أينما كان هذا الوجود . .

والحقيقة أننى كنت أحظى باحترام مميز وتقدير خاص ممن يعملون تحت إشرافى بالجامعة ، فلم يألوا جهدًا فى مساعدتى على تخطى ما قد يعترض حياتى اليومية هناك من بعض الصعاب ، فلكم تذكرت ذلك الصباح عندما جئت إلى معملى وقد عبس وجهى على غير العادة واستشرى الوجوم فى عينى لا لأننى لم أكن قد تناولت قدح الشاى الذى تعودته فى الإفطار ، ولا لعلمى مسبقاً باستحالة توفيره خارج المنزل ، وإنما لانقطاع الغاز بمسكنى منذ الليلة السابقة ، حيث قد فرغت أسطوانته على غرّة ، ومن المستبعد - وكأىّ أمر فى هذا البلد - استعاضتها فى التّو بل لابد من الانتظار ولو لبضعة أيام على أقل تقدير إذا ما قورنت كأحد أعضاء منظمة دولية بالمواطن الكوبى العادى والذى يدرج اسمه فى مثل هذه الأحوال بقائمة انتظار قد يمتد مداها شهوراً ! ويجدر بى الإشارة هنا إلى أن الرشوة والمحسوبية لها دور كبير وهام فى هذا البلد ، فكبار رجال الحزب الشيوعى الكوبى وأعضاء الجاليات السوفيتية - بما لهم من نفوذ وسلطة إدارية ، وبما أوتوامن قدرات « عينية » قد يشترك معهم فيها الأجانب بصفة عامة وبما لا يتوافر لدى المواطن الكوبى العادى - فلهم الأولوية بل الأحقية فى تيسير شئونهم الخاصة ، وتحقيق متطلبات حياتهم اليومية ، ولعل « علبة » من السجائر « المستوردة » أو زجاجة من « البراندى » أو « الويسكى » تقيم الدنيا وتقعدها ، بل تقلب الأوضاع رأساً على عقب . .

وأما عن الشعور الطيب والذى حظيت به ممن يعملون معى فى الجامعة فحسبى أنه يرجع إلى عدة أسباب أهمها محاولة إرضائى ، والعمل بقدر المستطاع على ضمان استقرارى الذهنى للاستفادة الكاملة من مهمتى الموفد من أجلها ، بالإضافة إلى معاملتى الشخصية لهم بالحسنى ، وبكل ألوان التعاطف الروحى

والإنسانى ، وبتضحياتى البالغة معهم بالوقت والجهد بما طغى – مؤكداً – على راحتى وحياتى الخاصة ، بل على التزاماتى نحو أفراد أسرتى وبالأخص فى ظروف بيئية واجتماعية قاسية يحتاجون فيها حتماً إلى أقصى درجات المشاركة الوجدانية وإلى المزيد من الرعاية والاهتمام ، ويكفى تلك الحالة الصحية السيئة التى اعترت قرينتى ومدى تضحياتها الواضحة بالبقاء لإتمام مهمتى ، والتى لا تخدم فى النهاية غير مصالحهم وبلادهم . . إذن ، لماذا لم تنجح محاولاتهم هذه المرة فى إقناع المسئولين بتوفير سيارة لتوصيل وإعادة قرينتى من وإلى المستشفى ؟ ولماذا لم تنجح محاولاتهم فى إقناع المسئولين بتوفير الرعاية الصحية لها بمسكنها تغلباً على هذه المشكلة ؟ . . كان واضحاً أن هذه المتطلبات لا تتمشى و« مظاهر » الحياة الكوبية ، بل تتنافى مع أساليب ونظم المعاملات « الرسمية » بهذا البلد الغريب ! فليس هناك من السيارات ما يخصص يومياً أو بصفة دورية لأداء مثل هذه المهمة « الشخصية » ، وغير مسموح بانتقال الطبيب لمباشرة ورعاية مريض بمسكنه !

ولم تتبدد تلك الخواطر من مخيلتى ، ولم تسترح سجيتى إلاّ فى الصباح التالى عندما تقابلت على عجل مع مدير المشروع وقد شاورته فى أمر ما حدث بالليلة السابقة ، وأمام إصرارى وعنادى كان فرضاً عليه تدبير الأمر ومعالجته بما أدى ، والحق يقال ، إلى ارتباك بعض الأمور الأخرى والمتصلة اتصالاً مباشرًا بالمشروع ارتباكاً شديداً .

« البروليتاريا » بين رحى الظلم والحرمان !

ولعلك فطنت . . أيها القارئ العزيز ، من مشكلة مرض قرينتي إلى مدى الأهمية البالغة للسيارة الخاصة فى التنقلات اليومية للأجانب هناك ، ولولا هذه الأهمية ما أقدم أحدنا على استيرادها أو جازف باصطحابها وهو يعلم تماماً كم يتحمل من المشاق فى صيانتها وكم يصادف من المصاعب الجمّة لتوفير قطع غيارها أو استعاضة ما قد يعطب من أجزائها ، فأمر عادى أن تُحتَجز سيارتك بإحدى الورش بما يزيد عن الأسبوع لمجرد احتراق أحد الصاهرات أو أى انفصال مفاجئ لأحد الموصلات الكهربائية ! ومن هنا كان لزاماً على الغالبية منّا اللجوء سرًّا إلى بعض العمال لتدبير مثل هذه الأمور أو لإجراء أعمال الصيانة الدورية لسياراتهم توفيراً للوقت والجهد .

فهذا « أرماندو » الميكانيكى ، وذلك « جويرمو » الكهربائى وذاك « إرنستو » عامل النظافة قد يخصص كل منهم من «العينيات» ما لا تزيد قيمتها عن دولار أمريكى واحد لعمل شاق قد يستمر معه يوماً كاملاً .

وذات يوم كنت فى زيارة خاطفة لأحد الزملاء ، وكان منهمكاً فى ملاحظة « أرماندو » الميكانيكى وهو يعمل خفية على إصلاح عطب بسيارة بالجراج الملحق بمسكنه والمجاور لإحدى دور « البيكادوز » .

وبينما كنا نتجاذب بعض أطراف الحديث إذْ نفاجأ بأرماندو وقد سالت الدموع على خديه محدقاً ببصره على مقلب للزبالة على مرأى من البصر خارج الجراج ، وقد همّ أحد عمّال النظافة بإلقاء بعض الفضلات به . . وبمواساته على ما عسى قد ألمّ به من فاجعة . . أشار بيد ترتجف إلى مقلب الزبالة ، وراح

يهذى بصوت حزين تشوبه حشرجة من البكاء المكتوم ، ليفصح عن حالة البؤس والشقاء التى يعيشها الآن أفراد الشعب الكوبى ، وليقارن مدى البذخ والنعيم الذى يحياه كبار أعضاء الحزب الشيوعى الكوبى وما يلقى من بقايا طعامهم وفضلات « البيكادوز » بصناديق القمامة ، فى حين أنّ الرعيل الأكبر من الشعب يتضوّر جوعاً ويتلظى ناراً بين رحى الظلم والحرمان ، حتّى إن البعض يعيشون على أسلوب « حيثما سقط لقط » وقد يلجئون إلى هذه الفضلات كى يلتقطوا منها حبات الأرز ويقتاتوا شغات اللحم ونفاياته !

وقد كانت الفرصة مواتية كى ننتقل بالحديث معه وباستفاضة عن التغيير الاجتماعى الذى طرأ على المجتمع نتيجة لاتباع النظام الشيوعى بالدولة ، ومدى انعكاسه على طبقة « البروليتاريا » بصفة خاصة ، وهنا راح ينتفض بعصبية بالغة ليمزق وليأتى على ما تبقى من ملابسه الرثة والمهلهلة ، متخذاً من نفسه نموذجاً حيًّا لأحد أفراد هذه الطبقة الكادحة من العمال وما ألمّ بها فى غضون هذا التغيير الاجتماعى من عرى وجوع وإذلال ، مقارناً ذلك بحياته السابقة التى كان يعمل من خلالها عاملاً بسيطاً بإحدى محطات « خدمة السيارات » ، ليدخل جيبه يوميًّا ما لا يقل عن ٢٠ بزو كوبى أو ما يوازيه من العملات الأجنبية فى صورة راشن « بقشيش » خلاف أجره ، ليرتدى أرقى الملابس ، وليستمتع بكل ما تشتهيه نفسه من أطيب الغذاء . . بلاد مفتوحة ، وسلع متوافرة ومستوى معيشى منخفض . . الكل يعمل وعلى قدر العطاء يأخذ ، لا حرمان ولا استبداد ، لا قيود ولا إرهاب . . لا تلصص فى العمل ولا تعريض لحياته إلى أخطر الأخطار . لا اصطياد لأجنبى أو ملاحقته كى يحصل منه على ما قد يشبع بعض جوعه أو يحمى جسده من لفحة الشمس

أو ما قد يستر به عورته ! إن ما يتبعونه مع الأجانب ما هو فى الحقيقة إلاّ تسوّل «مقنع» مستتر، يشحذون من خلاله بعض ما تتوق أنفسهم إليه وما لا يتحصلون عليه بالكدّ والعرق لخدمة من لا يستحقون من ماسكى السياط والجلادين ! وكان «أرماندو» مصداقا فى كل كلمة تفوه بها ، وبكل سريرة عبرت عنها أسارير وجهه المكفهر ، وبكل نبرة انبعثت من صوته الحزين . . فلقد أصبح مألوفاً لدى المرء أن يرى امرأة وقد ارتدت فستاناً أو تاييراً جهزته من «خيش» الأجولة ، لا لشىء إلاّ لأنها تتسلم فستاناً «أوحد» كل ثلاث سنوات ، وإذا فطنت أيها القارئ العزيز إلى رداءة الصناعة الكوبية بصفة عامة من جهة ، وأخرى إلى نظافة الفرد الكوبى بحق ، وولعه باغتسال ملابسه وبالاستحمام اليومى لأكثر من مرة ربما بحكم انتمائه إلى جزيرة ترتفع درجة حرارتها على مدار السنة ، لأدركت فوراً السبب الحقيقى لهذه الظاهرة الغريبة ، والتى أصبحت لشيوعها وانتشارها غير لافتة لـلأنظار اللهم فيما عدا الغرباء بالطبع .

والمسألة لم تقف عند حد المأكل والملبس ، بل امتدت لتشمل كثيراً من مظاهر الحياة واحتياجاتها ، فقص الشعر وترتيبه مثلا أصبح موقوتاً ومحدوداً بمرة واحدة فى الشهر ، سواء كان للذكر أو الأنثى ، وإذا كان الذكور بطبيعتهم لا يهتمون كثيراً بهذا الأمر فهو يعنى الكثير بالنسبة للمرأة والتى تميل بطبيعتها إلى التزين وحب التغيير فى ملامحها وسمات مكوناتها الشكلية والجسدية . . ومن هنا يجد المرء تفسيراً صارخاً . لانهماك من يعملن معى من النساء فى أعمال الزينة والتجميل ، واستقطاع فترات طويلة من وقت عملهن كل صباح يتبادلن خلالها تصفيف وتسريح شعورهن ، ولم أكن مغالياً إذا ما قررت ما لديهن من مهارة

فائقة قد يفتقر إليها الحرفيون من مصففى الشعر برغم انعدام المستلزمات والأدوات ، ولكن يبدو أن الحاجة هى فعلا أمُّ الاختراع ، على حدّ قولهم ، فلا تعجب إذن أيها القارئ العزيز إذا علمت أنهن يستعملن تلك الأسطوانات المقواة ، والتى تنتهى إليها لفافات ورق التواليت من الداخل كبديل لما تستخدمه نساء العالم أجمع من « لافغات » أو « رولارات » الشعر المصنوعة من مادة « البولى ايثيلين » الملونة . .

وإذا كنا قد نتفق على أن رولارات الشعر من « الكماليات » فمن المستحيل اعتبار الغذاء والمياه الغازية والكساء والمسكن و « الحرية » من كماليات البشر ، فهى ضروريات لنمو الإنسان وحمايته وإمداده بالطاقات اللازمة لقيامه بدوره الفعال فى بناء وتطور المجتمعات البشرية . . فكيف يتم للمجتمع الكوبى البناء والتقدم والفرد وهو مُطَوِّر الحياة يقاسى الجوع والمرض بما تتصدع له الجبال والصخور . ويقاسى التفكك والانهيار الاجتماعى بما تتحطم عليه لبنات ما قد يعتليه من بنيان ، ويقاسى القيود والاستبداد بما يعرقل انطلاقاته بل يجره إلى الدرك الأسفل من التخلف والدمار .

الترف والبذخ حكر على كبار الحزب الشيوعي

ولقد أصدقنا « أرماندو » القول عندما صرّح لنا عن بعض مظاهر الترف وحياة البذخ التي يعيشها كبار رجالات الحزب الشيوعي الكوبي بامتصاص عرق ودماء الطبقات الكادحة ، والتطفل بلا رحمة وبلا هوادة على أجساد « البرجوازية » و« والبروليتاريا » الكوبية ، وعما كشف عنه النقاب من اغتصاب ظالم أرعن لممتلكات « السينيور سوارز » وأمثاله من الطبقة الأرستقراطية والتي كان في مضمونها ومفهومها الأساسي هو الاستفادة منها في تقوية صرح البناء الاجتماعي وكفالة العدالة الاجتماعية وإرساء دعائم الحرية والانتعاش الاقتصادي للبلاد .

وإذا كنا نتفق تماماً على أن « الإقطاع » و « الرأسمالية المستغلة » من أبرز العوامل والمعوقات التي تؤدي دائماً إلى الاحتكار الاقتصادي وإلى تقويض صرح البناء الاجتماعي وإلى استغلال الطبقات الكادحة فإن مجرد انتقالها إلى شرذمة أو فئة أخرى ، وبخاصة في ظل نظام « أوتوقراطي » أو فاشيستي تحكمه

« التوتاليتاريا » أى تحت إرداة حزب واحد ، فلا يعنى سوى استمرار هذا التقويض وهذا الاستغلال ، بل يقود فى النهاية إلى الظلم والاستعباد الذى يعم الغالبية العظمى من أفراد الشعب . .

فما بالك إذن أيها القارئ العزيز إذا ما وقعت هذه « التوتاليتاريا » تحت سيطرة ونفوذ قادة الكرملين . . فهذا هو أقصى المراد حيث يتخذون من الشيوعية أسلوبًا لتركيز الحكم والسلطة بيد فئة قليلة متجانسة من أفراد الشعب يمكن عن طريقها الهيمنة على الأمور وتسييرهم طبقاً لمخططاتهم فى نشر « العقيدة » هادفين فى النهاية إلى استنزاف خيرات هذه الشعوب واتساع رقعة سيطرتهم . . وطالما امتلأت بطون هذه الحفنة القليلة بما لا يمثل عبئاً كبيرًا على السوفيت ، فهناك تأكيد واستمرار بل تعميق لنفوذهم وسيطرتهم على البلاد . . من هنا جاء حرمان الغالبية العظمى من أفراد الشعب الكوبى من خيرات بلادهم ، فهى للسوفيت فى المقام الأول . . ومن هنا جاء تقييد الحريات والتكبيل بالحديد والنار ، والعيش تحت وطأة الإرهاب والأحكام العرفية ، وافتقاد القيم والروحانيات ، وتحطيم الروابط الأسرية والاجتماعية ، واتباع سبل الأمن السياسى الرادعة والشكيمة بما يحكمها من أساليب « الجستابو » النازية وأعمال التجسس ، كلها حفاظاً على عملائهم من فئة « التوتاليتاريا » الكوبية .

وقد لمست بنفسى بعضاً من حياة الترف بل المجون التى يعيشها كبار أعضاء الحزب الشيوعى الكوبى . . فها هو ذا « الرفيق إرنستو » يسكن بالطابق العلوى من مسكننا بحى ميرامار ، وهو من كبار أعضاء الحزب ويعمل مديرًا لأحد مصانع « الروم » بهافانا . . وكثيرًا ما كان يقيم السهرات ليؤمها بعض النساء ، فترتفع الضحكات ويعلو الهرْج والمرْج بما كان يقلقنا كثيرًا ، أما الموسيقى فلم يكن

لها نصيب يذكر فى مثل هذه الأمسيات ، ولعله كان يحرص على عدم انبعاث أصواتها كى لا يلفت إليه الأنظار ، كما كان لا يعنيه اصطحاب زائراته إلى خارج باب القصر ، وكنت أراه فى أيام الآحاد وهو يعمل ملاحظاً يرتدى « الأوفارولز » ليلقى بالتعليمات والأوامر إلى فتيات وسيدات الحى من الكوبيات ، للقيام بأعمال النظافة ، وغسل الشوارع المحيطة بالقصر ، والتى يمارسنها إجباراً عليهن . . أما فيما عدا ذلك فلا أراه إلاّ مرتدياً زيه العادى فى أبهى صوره ، يتنقل بسيارة « موسكوفيتش » جديدة لها قائدها ورسوله الخاص . .

وبحكم عودتى من عملى متأخراً فى أغلب الليالى ، ومع سكون الليل الرهيب فقد كان يصادفنى مراراً وقوف إحدى السيارات من النوع « نصف النقل » على « بورش » القصر ، وقد غطيت جوانبها بالحصير أو قماش الجنفاص لتخفى عن الأنظار ما تحمله مما لذ وطاب من صناديق النبيذ « الأسبانى » ، والسجائر « الروثمان » الإنجليزية ، والسيجار « الهافانا » المخصص للتصدير ، الدجاج ، والبيض واللحم ، وجميع أصناف الفاكهة الطازجة ، وأغنى منتجات البحر الكاريبى من « اللونجوستا » أى « سرطان البحر » ، والجمبرى ، بالإضافة إلى ما تجود صناعته بكوبا من صناعات غذائية معدودة مثل الآيس كريم ، وعصير المانجو والأناناس والجريب فروت وغيره من الموالح . .

وإمعاناً فى توصيل هذه « الإمدادات » الخاصة فى الخفاء فقد اتخذت كافة الاحتياطات لضمان توزيعها على « المختارين » مرة واحدة أسبوعياً مع تباين أيام الأسبوع بين المرة والأخرى .

فيدل كاسترو :

والحديث عن الترف والمجون يجرنا بالطبع إلى شخص فيدل كاسترو ذاته بوصفه رئيساً للحزب الشيوعى الحاكم . . وسأترك هنا للقارئ استنتاج ما قد يخلد إلى فكره وتصوّره من شتى ألوان الترف والملذات التى يحظى بها القائد فى كل حركة وفى كل همسة وفى كل سكنة من سكناته !

وإن كانت حياة كاسترو الشخصية وكيف يعيش دقائقها وكيف يؤمّنها لم يهمنى الكشف أو الاستقصاء عنها من بعيد أو قريب ، فإن حياتى وروحى لأغلى بالقطع من أن تزهق ضحية لمجونه ، بل حتى لحياته ذاتها ، لا لأن حياته لا تهمنى بل لأن حياتى أنا قدتهم الكثيرين ، تهم وطنى وتهم عشيرتى ، تهم أبنائى وتهم تلاميذى ، تهم زملائى فى العلم وفى تطويعه لخدمة الإنسانية والارتقاء بالمجتمعات البشرية .

لقد رأيت الموت وجهاً لوجه وقد كنت على قاب قوسين أو أدنى من الهلاك لا لشىء إلاّ لمجرد الدخول بمحض الخطأ إلى إحدى المناطق المحرمة ! فذات أمسية وقد اشتد قيظها ، خرجت بصحبة قرينتى وأحد الزملاء وقرينته فى جولة بسيارتى الخاصة نجوب بعض شوارع هافانا المؤدية إلى الكاريبى ، وإذ بالحديث يأخذنا لأجد نفسى وقد توقفت عن القيادة اضطرارياً فلقد ارتطمت مقدمة السيارة بصفْد حديدى امتدّ بعرض الطريق ، فتحطم أحد الكشافين الأماميين ، وسرعان ما عُوّضنا عنه بكشافين مضادين خطفت أبصارنا ، ولم نر سوى « سونكين » موجهين إلى صدرى وزميلى الذى كان يجلس إلى يمينى . . وهنا علا صراخ القرينتين فى حين تملكنى وزميلى فزع وارتباك لم نعهدهما فى

حياتنا من قبل فلقد أدركنا أننا قد اقتحمنا منطقة محرمة ، ويا ويلنا لارتكاب هذا الجرم ! فالموت الزؤام مصيرنا ، والمجادلة فى مثل هذه الظروف لا تجدى ولا تفيد . . لقد تعثرت ألسنتنا ، بل تعمدنا الحديث بأى لغة غير الأسبانية إيهاماً بحداثة قدومنا إلى البلاد وجهلنا التام بنظمها . ولقد أبدى أحد الحارسين بعض اللين عندما طلب جوازات السفر من زميلى فى حين أمسك الآخر بمقبض الباب الذى يجاورنى – والشرر يكاد يتطاير من عينيه – ، محاولا فتحه بعنف ، وبسرعة خاطفة كنت قد أوصدت من الداخل دونه الأبواب وأغلقت زجاج النوافذ المواجهة له . ولم ألبث أن اندفعت بالسيارة إلى الوراء لألوذ بالفرار ، وما هى إلاّ ثوان حتى اختفينا عن الأنظار . . وكان بديهيًّا ألاّ نفكر بعد ذلك فى مثل هذه الجولة المشئومة ، فلربما يسبق السيف العزل ! وما أكثر تلك المناطق المحرمة انتشارًا فى هذا البلد .

وقد يهون الهلع الذى راعنا ، ويضمحل الرعب الذى عشناه هذه الدقائق العصيبة أمام ارتعاد أوصالنا استياءً ، وأمام المرارة اللاذعة وهى تسرى فى حلوقنا ، والمهانة الشائنة التى هيمنت على نفوسنا عندما علمنا فيما بعد أن موتنا كان محققاً فى تلك الليلة . . فكيف أتى لنا من الجرأة والجسارة أن نقحم أنفسنا على منطقة تضم استراحة للقائد يقضى بها لياليه الحمراء بين الخمر والنساء وقد نفسد بذلك خلوته ؟ .

أحياة الفرد فى هذه البلاد قد رخصت لتصبح رهناً لملذات السلطة ؟ . أحياة الإنسان قد دنِئت لتصير مقابلا لشهوانيات القيادة أو لمجرد الاقتراب من خلواتها ؟

هذه هى الشيوعية عندما تتصادق مع الشعوب . . تأخذ منها ولا تعطى ،

تنشر بها الدمار ولا تبنى . . تدعم القهر والاستسلام ولا تؤمن . . تثير الفتن والأحقاد ولا توفيق . . تزيد الفرقة ولا تقرب . . تكبل الحريات ولا تحرر . . تلغى القيم ولا تهذب . . تشيع الفساد ولا تصلح . . هكذا قال لى – وللغرابة – أحد الأصدقاء من كبار الحزب الشيوعى الحاكم ، وكان حديثاً وجدلا طويلا بعد اطمئنان بالغ ، وبعد عدة لقاءات كانت تتم مصادفة فيما بين أسرتينا بنادى « بارلوفينتو » على شاطئ الكاريبى ، أحد النوادى المخصصة للأجانب وكبار رجال الحزب الشيوعى ، حيث تقضى الأسرة معظم نهايات الأسبوع هناك بين حمام سباحته وبين التزحلق على مياه الكاريبى . . وقد كانت بدايتها تعارفاً بإحدى « حفلات الاستقبال الدبلوماسية » والتى كانت تدعونا إليها سفارتنا بهافانا بين الحين والآخر .

وكنت قد أثرت مع « الرفيق ميجيل » – بادئ ذى بدء – ما حدث لنا فى تلك الليلة المشئومة وكم أحسسنا بامتهان كرامتنا ورخص أرواحنا برغم مجيئنا وتضحياتنا الكبيرة لخدمة بلادهم ، وكتعليق منه شخصياً على حالة المجون والفساد الخلقى السائدة بين غالبية أعضاء الحزب الشيوعى الكوبى علمت بالتحديد أن لفيدل كاسترو وحده من الاستراحات والخلوات الخاصة ما يزيد عن عدد أيام السنة فى أجمل بقاع هافانا ، بل الجزيرة كلها . .

وعندما تطرق الحديث إلى حياة الترف والبذخ التى يحياها كبار رجالات الحزب الشيوعى الكوبى وهو بالطبع أحدهم – بما يدفعهم بلا وعى إلى الرضا ، ويشجعهم بلا تفكير على الولاء والتمسك بالنظام الشيوعى بالبلاد ، عبر بصراحة وإيمان صادق عن مدى استيائه الشديد ومقته الدفين له ، بل تعطش الجميع – بما فيهم فيدل كاسترو ذاته – إلى التخلص من براثن السوفيت وقادتهم ، ولو أنه

الآن بالأمر شبه المستحيل ! . فلقد كانت تجربة قاسية فرضتها عدة ظروف سياسية واجتماعية انتهت بما هم عليه الآن ، فلم يكن الإنسان يوماً ما آلة أو ترساً فى آلة يتحرك كيفما شاء له مصمم أو صانع هذه الآلة ، وإنما هو كائن حى ، كائن ملىء بالأحاسيس والعواطف ، كائن اجتماعى يعيش فى مجتمع بشرى يتفاعل معه بالفكر الحر وقدراته وطاقاته المتباينة والمتغيرة . . يعطى ليأخذ ، يفكر ليرتقى ، يتنافس ليتطور ، فليس الإنسان مجرد حيوان يأكل ويرتوى ليعيش ويتكاثر للحفاظ على جنسه ، وليس الإنسان كائناً دنيئاً ليتطفل ويجلب الدمار والحطام لعائله ، انظر مثلا إلى النمل والنحل « كحشرات اجتماعية » ، فكل فرد له دوره الفعال كى تسير الحياة وتنتعش بالخلية ، الكل يتعاون فى سبيل مصلحة الجماعة ، فلها الحرية فى التحرك والكشف عن البيئة الصالحة للمقام والعيش ، لها الحرية فى الانتقال للبحث عن الغذاء ، لها الحرية فى التصرف لتخطى ما قد يصادفها أو يفاجئها من صعاب أو مخاطر ، إنها لو تقيدت كالآلة بأسلوب معين أو سلوك ثابت ، فسرعان ما تهلك وتندثر . .

ويقرر « ميجيل » أنه لا سعادة إذن فى هذا الترف وهذا المجون الذى يعيشونه كأعضاء كبار بالحزب الشيوعى الكوبى ، وقد افتقدوا كل ما يتصف به الإنسان وما يتميز به كيانه الحيوى عن أىٍّ من المخلوقات الأخرى ، من فكر خلاّق مبدع ، ومن عواطف وروابط اجتماعية . . فهم بالوضع الحالى لا يتميزون بشىء عن الآلة الصماء التى تتحرك بالوقود (الغذاء) وتتلين أجزاؤها بالزيوت والشحوم (الكساء) ، لا عقل يدبرها ولا فكر يرشدها . . إنهم لا يفضلون العيش فى هذا البذخ بقدر ما يريدون العيش وقد ربطتهم أواصر الحب والاحترام . . إنهم لا يبغون حياة المجون والاستهتار بقدر ما يرغبون فى

العيش وقد ربطتهم أواصر الأسرة بالإخلاص والتضحيات . . إنهم لا يريدون حياة التطفل والاستنزاف بقدر ما يأملون حياة التعاون الاجتماعي وتبادل المنفعة . إنهم لا يستطيبون حياة الغدر والقمع بقدر ما يتوقون إلى تنفس هواء الحرية والاطمئنان . . فحتى حياتهم غير آمنين عليها بهذا البلد ، فقد يوشى بهم الواشون ، وقد يفترى المفترون . . فلا رحمة لمن لا يرحم ، ولا شفقة ، لأنهم لم يعرفوا الشفقة ، ولا تروٍّ ، لأنهم قد تعودوا الظلم ، ولا نقاش ، لأنهم عَهِدُوا التسلط . . وقد يكون أحدهم مجرد كبش فداء ، أو غاية وهدفاً للتحذير والإرهاب !

وإنني لمتفق تماماً مع « الرفيق ميجيل » فى أن فيدل كاسترو ذاته قد وقع فريسة سائغة « لأخطبوط الشيوعية » الكاسر ، فلا يزال كتابه « سيغفر لى التاريخ – ١٩٦٩ » يحمل بين سطوره العديد من « الروحانيات » والإيمان بالكثير من « اللا ماديات » والتأكيد على وجود الخالق عز وجل عندما يقول – مثلا – فى وصف حالة البؤس فى عهد « باتستا » والتى كان أطفال الريف يعانون فيها من « الطفيليات التى استشرت فى أجسادهم الواهنة ، نتيجة الحفا والعرى : « إن عيونهم البريئة – وقد لاحت فيها مظاهر الموت – شردت إلى « الله » تتوسله الغفران لأنانية البشر ، وكى يمسك من مقته وغضبه » [صفحة ٣٨] ، ومرة أخرى عندما يستشهد ببعض المقتطفات من إعلان استقلال مجلس النواب (الكونجرس) الأمريكى بفيلادلفيا فى ٤ يوليو ١٧٧٦ على ضرورة الحفاظ على حقوق الإنسان والضرب على أيدى كل من يعتدى عليها ، بأن أورد فى كتابه : « إن الناس خُلقوا جميعاً سواسية ، ولهم حقوق متجانسة وهبها لهم « الخالق » ، على قمتها الحق فى الحياة ، وفى الحرية ، وفى ملاحقة

السعادة » [صفحة ٨٢] . . كما أكثر فى كتابه من الترنم بـ « الروح » [صفحتى ٤٤ ، ٥٠] بل شبَّه التعليم » بكائن حىّ ، وأن المدرّس هو « روح التعليم » [صفحة ٤١] ، كما تغنى بالضمير والوازع [صفحات ٨ ، ٩ ، ٤٥] بل تشدّق « بالمذهب المثالىّ » وكأنه يؤمن « بالمثالية » [صفحة ٤٤] على حين يناهض « المذهب الواقعىّ » وكأنه لا يؤمن « بالماديّة » حين وقف أمام هيئة المحلفين بالمحكمة بعد فشله فى الهجوم على « المونكادا » ليتنكر لظلم العدالة وعدم استقلال السلطة القضائية عن الحكم ، فقد شبهها « بأنها ترس فى عجلة نظام الحكم يتحرك كيفما تسير مركبتها ، ومع كلٍّ فهذا لا يبررّ أى تصرف فردى على خلاف مبادئه » [صفحة ٦٣] . .

الشيوعية امتهان لكرامة الإنسان والقيم الاجتماعية

وإذا كانت الشيوعية تحرم « البغاء » باعتباره اتجارًا بالعرض بما قد يدع مجالا للتكسب الخاص ، فهى فى الواقع تلجأ إليه خلسة نظرا لافتقاد الروحانيات من جهة ، ولانتشار الحرمان والعوز بين غالبية أفراد الشعب من الفئات الكادحة ، ولوجود طبقة « التوتاليتاريا » بما تتميز به من ترف وما تتمتع به من فيض « العينيات » التى يسيل لها لعاب الجائع أو العريان من جهة أخرى . . وأصدقك القول يا عزيزى القارىء أن مجرد سيجارة فريدة « مستوردة » أو قطعة واحدة من علك « الشيكليت » كفيلة بإغواء أى امرأة . . وكأى حرفة أو مهنة هناك ، فالبغاء يدار لحساب الدولة ! ولكنه بالطبع لا يأخذ الصيغة الرسمية ، فتجده فى الفنادق ، حيث ينزل بعض الأجانب ، ويصبح جذبًا للعملات الحرة ، ولترويج بعض المشروبات الروحية المحلية ، وعلى الأخص « الروم » . .

وقد حدث أن قدم أحد الزملاء إلى هافانا تاركا أسرته ببلده ، عازما على قضاء طوال مدة إقامته بالبلاد منفردا ، لأسباب يتعذر معها اصطحاب أفراد

أسرته ، وكان نزيلا بفندق « ناسيونال » العتيق(شكل رقم ٦) المقام على ربوة عالية تطل على كورنيش الكاريبى والمعروف بطريق « الماليكون » ، وكأى غريب يزور هذا البلد لأول مرة ، فإنه قد يصعب علية للوهلة الأولى تدارك الأمور والإلمام بتظم الحياة فيه بما قد يمتد به فترات غير قصيرة . . ولهذا فقد دأب خلال الشهور الأولى لقدومه على العمل أو البقاء بالجامعة لساعات متأخرة ، كانت تأخذه إلى أقصى موعد يتنى معه طلب عشائه بالفندق . . وبالصعود إلى غرفته – وقد أضناه التعب ، وكى يخلد إلى النوم – يفاجأ بربتة خفيفة على الباب يعقبها دخول إحدى وصيفات الفندق على هيئة شبه عارية متذرعة ببعض المبررات لإخفاء السبب الحقيق لمجيئها ، كالتذرع مثلا بتغيير



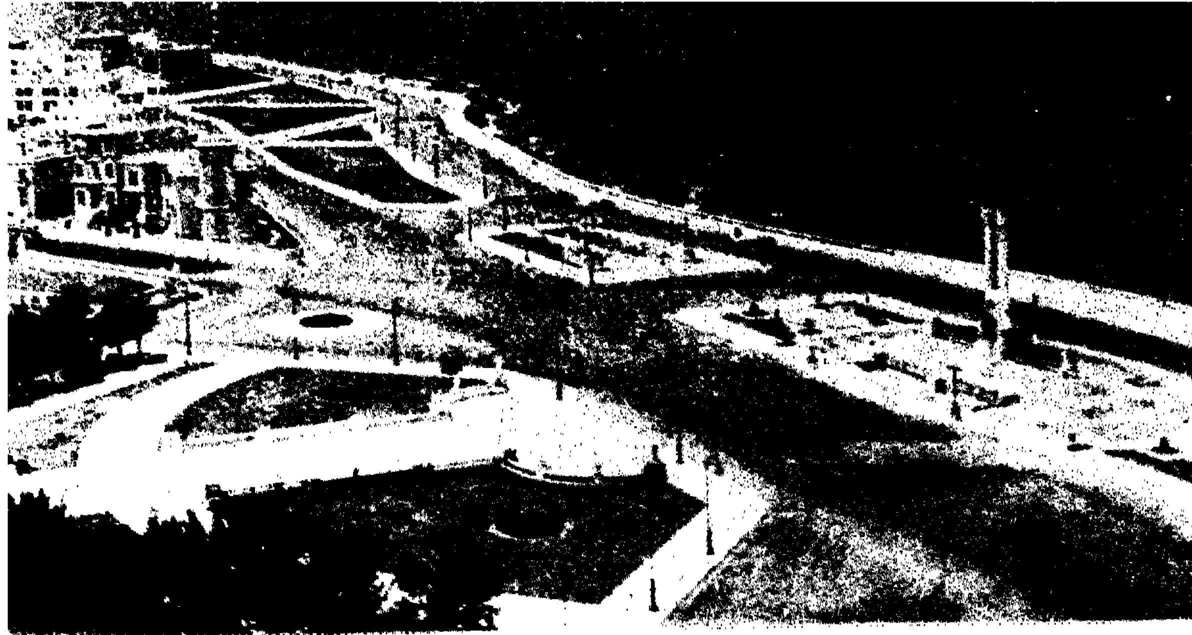
(شكل ٦) – فندق « ناسيونال » أفخم وأعرق الفنادق الكوبية بهافانا ، أصبح البغاء فيه هو الخدمة الوحيدة كما فى غيره من الفنادق !

أغطية الفراش ، أو بتنسيق الغرفة ، أو بإحضار مياه للشرب . . إلخ . وقد ساعد على هذا « الاقتحام » افتقار الأبواب بصفة عامة إلى مفاتيحها وانعدام أى نوع من المزالق . . وقد يتكرر هذا السلوك الشاذ كل ليلة مع اختلاف الوصيفة بين المرة والأخرى برغم تعففه وإصراره على طردهن خشية وهنٍ أو ضعف ، ولو أن ذلك لم يعفه من إسدائهن بعض « العينيات » مما قد يحتفظ به من الحلوى والفاكهة هروباً من الموقف ، وتوفيرا لما قد يطول به الوقت من جدل . . ولقد أمست هذه « الكفارة » — على حد تعبير زميلى — امرا يوميا وحتميا لاملاذ منه ، بل أصبحت ضريبة وطيدة يعمل على أدائها ويتدبرها دون أى مراوغة ! . . ولا أعتقد أن ترفع واستنكاف زميلى كان لضجر أو امتعاض ، أو لأنه بلغمى المزاج متبلد الحس ، وإنما كان عن فضيلة راسخة ، بل احترام بالغ لقدسية الإنسان وكيانه ، فلقد أبى امتهان أنوثتهن وقد رضين التدنيس للحاجة ، وأنف قنوطهن ، وقد قبلن الرذيلة بالإملاق . .

إن الغالبية العظمى من النساء الكوبيات بلون أجسادهن الخمرى وشعورهن السوداء المتهدلة ، وبما قد ميزهن الله به من سحر وجاذبية « تريجينيات » حواء أصبحن لا يمتلكن حتى من حق أنفسهن شيئا . . لقد أصبح جمال الكوبية الأخاذ سرابا ، وأمسى جسدها الخلاب شبحاً . تحولت وكأنها الرعبل الشمطاء تعيش فى طوايا النسيان ، تقاسى العدمية والاختناق . . وقد تعود زميلى الاستيقاظ مبكرا ليتجة إلى الشرفة المطلة على طريق الماليكون — كورنيش هافانا على الكاريبى — ليستنشق نسمة الصباح قبل أن تعلو الشمس إلى أعنتها ، فترسل أشعتها المحرقة كل قيظ وغب سعير . . ولم يكد ينسى مأساة الليلة الماضية حتى يقع فى مأساة أخرى أفظع وأعنف . . أزواج من البشر راحت تفترش

سياج الكورنيش بأحجاره العريضة المترامية ، وكأنها سرائر ممتدة لاحاجة بهم إلى غطاء ولا مدعاة إلى كساء . . لاحياء ولا خجل بل كل وقاحة وجل شنار ، سلوك فاضح وخسيس يحط من قدر الإنسان ، ويدنيه من أدنأ المخلوقات عيشا ، تجرد من اللياقة وتدعيم للفسق والفجور (انظر شكل رقم ٧) . . ما الذى يجرى بهذه الناحية من العالم ؟ ما الذى حدا بالإنسان إلى هذا الحال وهو سيد العالم وأرق المخلوقات جميعا ؟ والحقيقة أن زميلى لم يصمد طويلا إزاء هذا الموضع ، فسرعان ما أرسل مخيرا قرينته بين مجىء الأسرة بكامل أفرادها إليه أو عودته إليها . . وكم تحملت الأسرة من مشاق ، وكم عانت من اضطراب بالمجىء والعيش بهاقانا . . أتعلم لماذا أيها القارىء العزيز ؟ لأن لهذا الزميل ابنا يجتاز مرحلة المراهقة ، وعلى حد تعبيره ، كان أهون على نفسه التحكم فى مشاعره وأحاسيسه عن أن يعيل صبرًا ويضيق ذرعا ، بالحفاظ على ابنه ورعايته ، وليتحمل من المشاق والإرهاق فى سبيل ذلك ما قد تنوء به الجبال . ولم يكن زميلى منصفًا فى حكمه على هؤلاء الذين قد رآهم وهم يفترشون سياج الكاريبى ليتعاشروا ، ولو علم السبب لبطل العجب ، ولتلمس لهم العذر كل العذر فلم تكن هذه الأزواج من البشر سوى أفراد زيجات شرعية لا تمثل البغاء من بعيد أو قريب ، لأنه من الممنوعات بحكم القانون ، ولا يمكن مزاولته بالعلن ، وهو أمر طبيعى . . إذن ما هى الظروف الخفية التى تدفع بهذه الزيجات لمباشرة المعاشرة الزوجية والجنس فى العراء ، وبهذه الصورة الفاضحة واللاإنسانية ؟ .

إذا عدنا بالذاكرة إلى « منحة السعادة » أيها القارىء العزيز (انظر صفحة ٣٣) فإن المرء قد يتساءل لتوه عن مصير وكيفية حياة هذه الزيجات خلال



(شكل ٧) – كورنيش « الماليكون » ذو الشهرة العالمية يطل بهافانا على الكاريبي برونقه واتساعه وبما يحده من المبانى الفخمة والفنادق العالمية والمتنزهات العامة ذات الطبيعية الخلابة ، أصبحت الان أسواره مضاجعاً لطريدى « منحة السعادة » !

فترات ما بين الأيام الثلاثة الممنوحة من الدولة (كشهر عسل) والتى قد تتكرر بتكرار الزواج لكلٍّ أو أحد طرفى العقد . .

ومن البديهى أن تجد الدولة المسوغ والتبرير الكافى ، بل الحق كل الحق فى عدم توفير مسكن لمثل هذه الزيجات غير المستقرة ، والتى لا تتعدى حياتها فترة زمنية محدودة الأجل ، قد لا تزيد عن بضعة أشهر فى أغلب الحالات ، كما أن النظام الشيوعى يحرم من إقامة أية زيجتين فى مسكن واحد ، حتى لو كان هذا المسكن يتعلق بوالدى أحد طرفى الزيجة الأخرى . . ومن هنا لا يجدان مفرا من الالتقاء والمعاشرة الزوجية على قارعة الطرق . و « الماليكون » من أنسب الأماكن ، بل المفضلة لدى الكثيرين ، لأنه يطل على الكاريبى بما يؤتيهم به من النسمات وطلق الهواء ، وخاصة فى الساعات المبكرة من الصباح ، وبما لا يبعدهم كثيرا عن مقار أعمالهم بالعاصمة تلاشيا أو تخفيفا من حدة المواصلات ، والمعاناة البالغة التى دائما ما تصادفهم فى التحرك والانتقال من مكان إلى آخر .

ولعل زميلى قد بطل عجبة حقا عندما علم بكنه الموضوع من أحد المشتغلين تحت إشرافه العلمى بالجامعة ، حيث قد طلب منه توصيله بسيارته الخاصة إلى أحد الأماكن القريبة من مسكنه بصحبة إحدى زميلاته — وكان قد تزوج منها حديثا — ولما هم زميلى يفتح باب السيارة الأمامى لاستقبال الزوجة فوجىء بها وقد اتجهت إلى المقعد الخلفى لتشارك زوجها الجلوس فيه ، وعندئذ لم يجد زميلى بدا من التغاضى عن هذا التصرف ظنا بجهلها لأصول المجاملات (الإتيكيت) وما يجب اتباعه من آداب السلوك العام والتقاليد المرعية . .

وكم ارتجفت أعصابه غضباً بل كاد يفقد صوابه عند أحد المنعطفات

عندما نظر فجأة إلى المرآة العاكسة ليشاهدهما وقد راحا فى غيبوبة من النشوة يتطارحان الغرام ويتداعبان عبثا وخلاعة ، وكأنهما فى عريش الحب بما يشذ عن المألوف . . وهنا توقف ليطلب منهما – والشرر يتطاير من عينيه – مغادرة السيارة مؤنبا وموبخا ، مستنكرا هذا الفعل الشائن وهذا السلوك البهيمى ، فليست سيارته بأرض موحلة كى يتمرغا فيها بالرذيلة ، ولا هى (بماخور) يستبيحانه لما هو فاضح . . ولم يجدا بدا أمام ثورته العارمة غير تنفيذ رغبته ، فقد بدا مستحيلا مصارحته لتوه بالمبررات والدوافع إلى هذا السلوك . .

وفى صباح اليوم التالى أتاه الشاب جاثما مستعطفا يستميحه عذرا لما حدث بالأمس ، وقد علم منه كيف أنه يعيش فى بيت الطلبة وقرينته بعيدا عنه فى بيت الطالبات ، ولا تجمع بينهما سوى المصادفة أو إيجاد هذه المصادفة إذا ما استطاعا إلى هذا سبيلا . . وهنا راحا فى مجادلة عرف زميلى على إثرها الموضوع برمته ، فرثا لحال شبابهم وحياة الضياع التى يعيشونها ، والفجاجة والمهانة التى يحيونها . . وقد يأخذك الذهول ، عزيزى القارئ ، بل ينفرج فاهك تعجبا إذا علمت أن الدولة – مساهمة منها فى حل هذه المشكلة – قد أقامت لهذه الزيجات البائسة – وفى بعض الجهات النائية عن العمران – ما يعرف هناك بـ « السيناديروز » أو « الكوفانتشويلاز » وهى عبارة عن شاليهات أو مغارات صناعية تقدم بالمجان ، حيث يختلى فيها الرواد فى سعادة وهمية وكأنها « جنة العبيط » ، وأحيانا توزع عليهم فيها كئوس « الجعة » وكأنها ينبوع الخلود وإكسير الحياة . . وقد تعرض بوجهك متقززاً ، بل ترتعد فرائصك ويقشعر بدنك لرؤية هذه الزيجات وقد أصطف أفرادها مثنى مثنى فى صفوف قد تمتد أميالا فى انتظار (الفرج) وأخذ دورهم إلى هذه « البوسيلجات » على حد تعبيرهم ، أى

« زرائب الخنازير » أجسادهم تقددت وتيبست من نار الشمس الحارقة ، وتدلت ألسنتهم ظمأ وعطشاً . . وفى النهاية بضع دقائق معدودة أو لحظات محسوبة . . فكم من كبرياء جرح ، وكم من كرامة أهدرت ، فياليت الإنسان ما خلق وياليته ما عاش !

السلب وصلافة السوفيت

لم تكتف الجاليات السوفيتية هناك بأوعيتها التى تنضح بأطايب الطعام ، وبما لذ وشهى من أرض الجزيرة ، بل يعيشون حياة العزلة البغضاء ، فلهم مقاطعاتهم الحصينة التى لا يجرؤ امرؤ على الاقتراب منها وكأنهم أسياد القوم ، ولهم من النوادى ما يميزها ، والمستشفيات ما يخصهم ، ولأطفالهم مدارسهم المستقلة . . يهيمنون على مقاليد الأمور فى البلاد فلهم السطوة العليا والقبضة الكبرى ، لهم الأمر والنهى ، ولهم الطالح والصالح ، وما أعضاء الحزب الحاكم غير دمى يحركونها كيفما شاءوا وحسبما أرادوا . . إنهم يعيشون حياة اللامبالاة . . حياة الهمجية والصلافة ، لا يعبئون بأحد ، ولا يقيمون وزنا لمشاعر أو كيان الآخرين ، حتى لو كانوا – هؤلاء الآخرين – من الأجانب المقيمين هناك سادة للدهماء والسواد الأعظم من الشعب غير أنهم عبيد للشهوات والمجون فهم رعاع وصعاليك المويوقراطية فى البلاد ، فلا حازم ولا رابط لهم وكأنهم خرجوا من بلادهم مصممين على الانطلاق والاندفاع بعد

كبت شديد وحرمان ، مصممين على التعالى بعد إذلال وطول أناة ، مصممين على ملء بطونهم بعد عصيب ربطها . . مصممين على تغطية أجسادهم التى طال عريها . تراهم يجمحون على « المحل الدبلوماسى » والمخصص لأعضاء السلك الدبلوماسى ، والمقيمين هناك من خبراء الأمم المتحدة وكأنهم « قطيع » قد تآكلت أغلاله أو انفكت أصفاده ، تسمعهم وقد عم بهم الصخب واللغط ذكور تنبح وإناث تموء ، ولعل تجمهرهم وإحاطتهم لمداخل المحل فى تلك الساعة المبكرة من الصباح وقبل الموعد المحدد للعمل اليومى به لإشارة واضحة ولدليل قاطع على وصول إحدى السلع وقد طال انتظارهم لها . . وتزداد الزوبعة جيشانا عندما يندفعون إلى داخل المحل وقد فتحت أبوابه للعملاء . .

وناهيك عن ذلك ، فتعال معى أيها القارئ العزيز لترى الهرج والمرج وقد ملأ أرجاء المحل ، وما هى دقائق حتى يصير كل ركن فيه مغثوثا ، فلا يلتزمون بنظام أو بتقاليد مرعية ولا يحترمون ذات الإنسانية . . وسرعان ما تجد نفسك فى حيص بيص تلاحقك الأيدى المتطايرة يمنة ويسرة ، وقد تصيبك لكزة مرفق أو ركلة قدم فتطرحك أرضا . . لا تهمهم سيدة ولا يأبهون لمسن أو رضيع ، وكأنهم قد أصيبوا حقا بـ « البارانويا » أى جنون الاضطهاد أو ألم بهم الذهان أو العته . . تعالى معى لنرى كم يتهافتون على تلك السلع وكأنهم العرى ذاته أو الجوع كله ، يتكالبون على الشراء منها بكميات هائلة لا يتصورها العقل وكأنها جلبت خصيصا لهم ، فلا يشاركهم فيها أحد ، وبرغم ما غصت محلاتهم الخاصة وعجت به من سلع وبضائع فقد ندرت وتعاظمت . . سلوك لا يمكن تبريره بغير الأنانية بأجل معانيها ، والاستعداد الملهم للاستنزاف بأشمل صوره . . يستحلون ما حرم عليهم ويستطيبون كل ما هو مقيت وكريه . .

الجبروت والاستعباد عنوانهم ، والاستهتار والاستخفاف رمزهم . . فهم مروجو السوق السوداء هناك بما حرصوا على استترافة واقتنائه وبما تعالوا فى اغتنامه ، فالسلطة لهم سكوت خانعة ، والقوانين لهم طوع مرنة واهنة ! . . وياويل من تسول له نفسه ويكون لغيرهم من العملاء ، فالسجن مأوى المواطن ، والترحيل جزاء الأجنبى . . وياليت سفارات بأكملها تلغى ، ويا حبذا لو خليت البلاد تماما من الأجانب ، فهم بلا شك مصادر إعلام ودعاية لمجريات الأمور ، ومذاهب الحكم فى بلادهم ، بل قد يكون من بينهم من الجواسيس والخطرين من يهدد أمن البلاد أو يثير التذمر والعصيان ! . . وكما أن الدولة تحرم الاتجار بالعرض ثم تراها جليا وقد أباحته ، بل وظفته لصالحها ، فهى أيضا إذ تحرم الاتجار فى السوق السوداء فهى التى تمارسه ، بل تؤكده فى كل معاملاتها . . لقد كان لنا الحق كخبراء فنيين بالجامعة ومن الأجانب أن نتعامل – بالإضافة إلى المحل الدبلوماسى « الدبلوتيندا » باعتبارنا خبراء للأمم المتحدة – مع المحل المخصص للفنيين من دول الاتفاقات الثنائية مع كوبا ، وهو ما يعرف بالمحل الفنى « التكنى تيندا » ومن هنا قد واتتنا فرصة المقارنة بين أسعار المحلين . . فالمحل « الفنى » تتصاعد فيه الأسعار لتصل إلى ما قد يربو على عشرة الأضعاف لمثيلاتها بالمحل « الدبلوماسى » ولا مبرر واضح سوى أن المعاملة فى المحل الأخير بالعملات « الحرة » وفى المحل « الفنى » بالعملة « المحلية » ولا يمكن تحت أى من الظروف اعتبار هذا الفارق الهائل مجرد ضرائب أو رسوم جمركية !

قد تلحظ أيها القارئ العزيز مدى التفرقة بين فئة وأخرى ممن يعيشون أو يقيمون بالجزيرة ، سواء كانوا من المواطنين أو الأجانب ، ومدى التخصيص والتقييد الصارم فى كل ما يتعلق بحياتهم واحتياجاتهم ، بل فى المحال التى يصرح

لهم بالتعامل معها دون سواها ، فلا يمكن لغيرهم مجرد الدخول إليها أو حتى مشاهدة ما قد يعرض بها من بضائع أو سلع . . فلما قد يتميز به المحل « الدبلوماسى » من سلع وأصناف قد لا تتوافر بمحال المواطنين ، وتفاديا لما قد يثير فى نفوسهم من الشجون ، وتلاشيا لما قد يحرك فى قلوبهم من الحسرة والسخط ، فقد أسدلت ستائر واجهاته الزجاجية أو غطيت بما يخفيها عن أبصار الفضوليين !

وتذكرنى هذه الحقائق بقصة « السنيورة تمارا » قرينة « الدكتور ريفيرا » [وقد سبقت الإشارة إليه] عندما كانت تزور قرينتى فانتهزت فرصة احتياجها الطارئ إلى تسويق بعض احتياجاتها من المحل « الدبلوماسى » لتصطحبها إليه فى سيارتها العتيقة بأجزائها المتداعية . . ولم تكن قرينتى بعد قد قطنت إلى بواطن الأمور ، كما لم تنبهها « السنيورة تمارا » إلى هذه القيود ، بل على التقيض ؛ فقد كان واضحا تعمدها وسبق إصرارها منذ الوهلة الأولى على ارتكاب هذه المخاطرة الشنعاء !

وبانشغال قرينتى بتدبير احتياجاتها وإذ بأحد موظفى المحل يربت كتفها طالبا منها مقابلة مدير المحل بمكتبه لأمر هام . . وكم كادت تغيب عن وعيها من فرط الفزع عندما وجدت « السنيورة تمارا » فى حضرة المدير وقد انهارت أعصابها وخارت قواها وراحت تجهش ببكاء يختلط بنبرات الخوف والوجل تستعطفه وتسترحمه وكأنها ارتكبت جرما فظا أو خطأ كبيرا ، فهل امتدت يداها لتسلب شيئا من معروضات المحل ؟ أو هل تسببت فى كسر أو تحطيم شىء مهما تفه ؟ . . لقد كادت قرينتى تفقد صوابها عندما علمت أن جريمة « السنيورة تمارا » لا تتعدى « اقتحامها » المحل بما ليس من حقها كمواطنة ، كما أنها قد تضافرت

معها على اقتراف هذا الإثم ، بل هذه الجريمة النكراء ، مما يعرضهما معا إلى العقاب والوقوع تحت طائلة القانون !

ولولا إدراكه العميق لحقيقة الأمر ، واقتناعه التام بجهل قرينتى لهذه الانظمة وتلك القرارات ، وتأكده الراسخ من عدم العودة أو تكرار ما ينافيها ما صفح عنهما مدير المحل . . وقد لا أكون مغاليا أو متحيزا إذا ما قررت أن تصرفه النبيل هذا ما هو إلا محض استثناء لا مسوغ له سوى طيبة سجيته الشخصية ، وانعكاس المعاملة الحسنة التى كنا نتبادلها ، بل نحظى بها كعملاء لهذا المحل من العاملين به بصفة عامة . .

ولعل « السنيورة تمارا » حينما اندلفت إلى المحل تذكرت شيئا من الماضى البعيد ، الماضى بكل عظمته ورخائه عندما كانت محلات وحوانيت هافانا العريقة وأسواقها العالمية المشهورة فى « جليانو » و « برادو » (انظر الشكل رقم ٨) والشوارع المحيطة بهما تتخم وتكتظ بما هو فخم وعظيم ، وبما هو نادر وثمين ، تفتح مصاريعها لكل قادم ولكل والج ، فلها ما تريد ولها ما تستطيب . . لها من الخيار والانتقاء مالا يثنيها عنه أحد ، لا قيود ولا حرمان ، لا انغلاق ولا إذلال . وسرعان ما ارتبكت وقد تملكها الذهول والقنوط وكأنها تندب تقلبات الدهر ، فتركت لدموعها العنان لتنساب على خديها كالغيث وقد هطل ، والخور وقد فاض . . إنها لفى حيرة من أمر نفسها ، بل وقعت فى ورطة وكأنها بين النار والرمضاء . . وهنا فقط تعرف إليها العاملون بالمحل واقتادوها إلى المدير ، فقد خان المراقبين التفرس ، وخدعهم التأمل والاستبطان أول الأمر ، فلا يمكن أن تكون هذه السيدة أجنبية حديثة العهد بهافانا !



(شكل ٨) — طريق « برادو » ذو الشهرة العالمية برونقة وثراء محلاته بما كانت تضم من أندر وأرق السلع والمعروضات . . تتوسط الطريق جزيرة عريضة بنيت وأرائك الاستراحات بها من المرمر الطبيعي الملون . . لقد أقفر الطريق وأصبح فى طى النسيان . . ولم تعد محلاته تعرض شيئاً !

والحديث عن صلافة وتعسف السوفيت لا يمكن أن ينضب له معين ، فقلوبهم قد تحجرت فلا رحمة ولا شفقة تلينها ، وعيونهم قد جفت فلا يرقأ لها دمع ولا يعرف إليها سبيلا . . يكشرون دائما عن أنيابهم ، فلا تجد الابتسامة إلى ثغورهم ثغرة .

إن ما حدث لابنى فى ذلك اليوم ماهو إلا تعبير صادق ونموذج حى لقحة وصفاقة هؤلاء الرعاع بما أوتوا من الغطرسة ، وبما جبلوا عليه من تصرفات تتنافى والعرف العام ، بل الأصول والآداب المرعية بين البشر . . فلقد كان يلعب مع أصدقائه فيما يحيط بمسكننا حيث أطلقوا لأنفسهم بعض العنان ، وإذ به « يحف » بسيدة كانت قد خرجت مندفعة من باب مسكنها ، فتوقف على الفور يستميحها عذرا ويطلب منها الصفح . . ولكنها لم تعبأ بما أبداه من حسن السريرة ، ولم تقم وزنا لاعتذاره أو لحداثته ، فقد اكفهر وجهها واستشاطت غضبا وراحت توبخه توبيخا عنيفا ، بل أمطرته وابلا من السباب بما يعجز قلمى عن ذكره اشمئزازا وتعففا ، وعندما توجس الشر منها - فقد كان فى حديثها ما ينذر بالخطر - لم يجد بدا من أن يلوذ بالفرار ويولى الأدبار إلى حيث نسكن ، وسرعان ما رآها تتعقبه وتطارده وقد علا صوتها بما يخدش الآذان ، وكأنها ثور هائج أو ذئب شرس يريد أن ينال من فريسته . . وهنا خف الخوف إلى قلبه وسيطر الذعر على وجدانه ، وقد أعياه التعب والذهول فتعثرت قدماه ليجدها تعقد ذراعيه وتثنى أحد مفاصله وتكيله من اللكمات ما جعله يصرخ ويستغيث مما نبهنا أخيرًا إلى ورطته ، وجعلنى أخف إلى نجدته ، وقد أدنف على الغثيان . .

أتعرف يا عزيزى القارئ . . من هذه السيدة ؟ ولماذا كانت ثورتها البهيمية

هذه ، وتهورها العارم هذا ؟ . . إنها سوفيتية تقترن بأحد الحرفيين السوفيت ممن يطلق عليهم ، فى مثل هذه البلاد ، الخبراء السوفيت ! لقد كان مبررها الوحيد لفعلتها الشنعاء أنه قد « استخف » بها « واستهزأ » حيث مزح فى موقف يتطلب الجد ، وهزل فى غير موضع الهزل . . فلقد افترت شفتاه عن بسمة فى أثناء اعتذاره لها ! . . فيا للهول ، ويا للمصيبة ، بل يا للطامة الكبرى أن يقرن الإنسان اعتذاره بالابتسامة !

فالابتسامة فى نظر السوفيت إهانة واستخفاف ! . . فلا عجب إذن أن تراهم دائما عابسين متجهمين ، ولا غرو أن تراهم نكدى الطبع عكرى المزاج ، إنهم لمتغطرسون ، قساة الأفئدة ، همجيون ، لا يعرفون من قاموس المجاملات والتقاليد المرعية وآداب السلوك العام شيئا . . فهؤلاء هن نساؤهم . . مربوعات القامة ، مفتولات العضلات ، عاقدات الجبين ، لا يرحمن ولا ينصفن . . فما بال رجالهن ؟

على رسلك أيها القارئ العزيز ! تعال معى إلى النادى الرياضى الملحق بفندق « السيرا ميسترا » « أنظر الشكل رقم ٩ » حيث يصرح لنا كفنيين بالجامعة بقضاء أوقات فراغنا هناك ، كى ترى كم بلغت غلظة القلوب أقصاها وفظاظة السجايا أعتاها ، ولكى تدرك كم من رحمة أهدرت ، وكم من شفقة زالت واندثرت . . فها هو ذا ابنى يتدرب على القفز فى الماء بحمام السباحة فارتطمت شفتاه بقاعدة « المنط » وأصيب بجرح فاغر ونزيف دموى حاد نقله على أثره أحد أصدقائه إلى حجرة « الإسعاف » بالنادى . . فما بالك وقد رفضت الممرضة « السوفيتية » المنوطة بالعمل مجرد استقباله بحجة أنه من غير « السوفيت » أو « البلغار » فهم نزلاء هذا الفندق ولا خدمة ولا إسعاف



(شكل ٩) – فندق « السيراميسترا » بهافانا بجمام سباحته المستقطع من الكاريبى ، بقاعاته الفسيحة والمتعددة وملهاه الليلى بفخامته وعظيم ما كان يقدم به من عروض عالمية نادرة .. أصبح الآن مقصوراً على السوفيت والبلغار كنزلاء !

لغيرهم .. ! .. ومع احتدام الصديق وثورته تجاه هذا التصرف اللاإنسانى وهذا السلوك اللاأخلاقى اضطرت واجمة مهمهمة إلى تغطية الجرح بقطعة من المشمع اللصوق دون تطهير أو تضميد ، ولولا أن تصادف وجودى بالنادى وقت ذاك ، وقد علمت بالخبر فأسرعت به فى سيارتى الخاصة إلى المستشفى التابعين له لنزف حتى الموت .. فياويل من يعقد عليهم الآمال ! ويا ويح من يتصادق أو يتعايش معهم من شعوب !

كيف تنفذ الشيوعية إلى الشعوب ؟

وإذا كان السوفيت يتشدقون ويعلنون على الملأ والعالم أجمع ، وبكل تبجح ، أنهم يمنحون كوبا يوميا ما يربو على عشرة ملايين من الدولارات كإعانة « بلا مقابل » ، فهذا هراء ، بل هو الاستخفاف المقيت بعينه ! فليس هناك من الدول ، أيا كانت ، من تعطى ولا تأخذ ولو على المدى البعيد . . فالمقابل « العينى » و « العقائدى » يتجاوز ، بلا منازع ، أضعاف أضعاف هذه القيمة . .

فكوبا وهى أكبر جزر الهند الغربية مساحة (حوالى ١٢٥ ألف كيلو متر مربع بما يوازى ⅛ مساحة مصر الكلية) وتعرف بـ « لؤلؤة » هذه الجزر تتميز تربتها الزراعية بخصب لا مثيل له فى العالم أجمع ، إذ تعلو فيها نسبة أملاح الحديد والمنجنيز ، كما تهطل بها الأمطار غزيرة وترتفع بها درجة الحرارة بما يلائم زراعة أى نوع يعرفه الإنسان من المحاصيل والمزروعات الاستوائية وشبه الاستوائية ، مثل قصب السكر (٧ ملايين طن سنويا) حيث يقطع (يحش) لمدة ٥ سنوات

متوالية ، الطباق (٤٠ ألف طن سنويا) وهو أرقى الأنواع العالمية ويزرع فى بينار ديلريو ، فى غربى كوبا (انظر الشكل رقم ١٠) ، الأناناس وتغل الأرض منه ٣ — ٤ مرات فى السنة الواحدة ، الموز ، البن ، الكاكاو ، الموالح ، وخاصة الجريب فروت ، جوز الهند ، وكوبا تتخم بالثروات المعدنية وأهما الحديد ، النحاس ، المنجنيز ، الكروم ، الأسفلت . وبها من الغابات ما ينتج أرقى الأنواع من خشب الأثاث مثل الماهوجنى ، السيدر ، الصندل ، الأبنوس وغيره ، هذا بالإضافة إلى ثرواتها الحيوانية (٥ ملايين رأس من الماشية) وثرواتها البحرية من الإسفنج والأسماك ، سرطانات البحر . . وتتميز كوبا بإمكانات سياحية عريضة ومتنوعة ، من آثار عريقة تحكى تاريخ وحضارة



(شكل ١٠) — « وادى بناليس » بمحافظة « بينار ديلريو » فى أقصى الغرب من الجزيرة حيث سحر الطبيعة ، واتساع الأراضى ، والجو المناسب لزراعة أرقى أنواع الطباق العالمية التى أكسبت كوبا شهرتها فى صناعة السيجار المعروف بسيجار « هافانا » .

الأسبان والقراصنة أمثال « السير هنرى مورجان » وجمال طبيعتها وسحر جبالها وغاباتها وما تحتويه من طيور وحيوانات نادرة ، كما تفرد بموقع استراتيجى هام فى تلك المنطقة ، حتى أطلق ملوك الأسبان على « هافانا » العاصمة اسم « مفتاح وحامية جزر الهند الغربية ، وتطل كوبا على المحيط الأطلنطى من الشمال وعلى البحر الكاريبى من الجنوب ، وقد صدق خروستوف كولومبوس مكتشفها فى عام ١٤٩٢ عندما وصفها « بأنها أجمل ما يمكن لعين بشر أن تقع عليه » .

ومن هنا كانت كوبا مطمعا كبيرًا للسوفيت ، ليس فقط لذاتها ، بل أيضا كمدخل لتغلغل نفوذهم فى دول أمريكا اللاتينية ، كما كانت يوما ما مطمعا للأسبان فى أعقاب اكتشاف كولومبوس لجزر الهند الغربية والعالم الجديد ، فقد جعلوا منها امتدادا لبلادهم فى نصف الكرة الغربى . .

وإذا تحدثنا عن الأسبان فالوضع يختلف تماما ، فقد كانت كوبا — كغيرها أراضى العالم الجديد — أرضا بكرا ، يستوطنها بعض القبائل من « الهنود الحمر » بما كان يطلق عليهم « الآراواكز » . . وقد كانوا من المسالمين ، فقتل منهم الكثيرون لاعتراضهم على العمل بالسخرة بمناجم الذهب ، والتى كان الأسبان يحلمون بجمعه ، ثم كان لابد لهم بعد ذلك — خاصة أنهم قد انذلقوا فى عادة التدخين التى تعلموها عن « الآراواكز » — أن يستوطنوا هذه البلاد ويستخدموها كمزارع لإنتاج قصب السكر والدخان والقطن ، لما كان لها من أهمية اقتصادية وسوق رائجة ببلدهم أسبانيا . . وقد اختلطوا هم وهؤلاء « الآراواكز » والعبيد الذين أتوابهم من أفريقيا خصيصا لأعمال الزراعة التى اتسعت ، ومن هنا أصبح السكان الشرعيون والحاليون للبلاد هم ممن يعرفون الآن بالأسبانية بـ « الكريويوز » أى « المولدين من أبوين ، أحدهما ملون والآخر أسبانى

أو أوربي بصفة عامة حيث نزح إلى كوبا أيضا بعض من الفرنسيين المقيمين بجزيرة « هايتى » عندما قامت ثورة زنوجها فى عام ١٧٩١ بزعامة « لوفرتير» ولا شك أن فيدل كاسترو ذاته هو أحد هؤلاء « الكريوبوز » . إذن فشتان بين من استوطن هذه الأرض البكر – وأصبح سكانها الحاليون من سلالاتهم – وبين من يغتصبها من هذه السلالات . .

والسوفيت وإن كانوا حقا لم يغتصبوا كوبا عن طريق القوة أو السلاح فقد حرصوا على سلبها أو اغتصابها بأسلوب التصادق والتعايش . . فهذه هى إحدى فلسفاتهم الجديدة فى السيطرة والاستنزاف ، يتحركون على هديها ومن خلالها ، كما حدث أخيرا فى ليبيا ، وكما كاد يحدث فى مصر.

وسياسة التصادق تتم عادة عن طريق الخديعة « والانتهازية السياسية » كإبداء الرغبة فى الحماية الخارجية أو تدعيم واستقرار الأمن الداخلى ، أو فى المساعدات الاقتصادية ، فإذا لم تستطب أو تستجب السلطة الحاكمة فى البلاد لهذا التصادق السوفيتى أو تبدى رفضها له ، فما على السوفيت إلا القيام بمحاولات تستهدف قلب نظام الحكم بهذه البلاد والإطاحة بالسلطة فيها ، مدعمة حفنته ممن يمكننى تسميتهم بـ « المتربصين » أو «المتعطشين » إلى الاستيلاء على السلطة الحاكمة فى بلادهم تحت شعار « حركات التحرر الشعبى » ، وهم من الموالين للشيوعية والاتحاد السوفيتى ، كما حدث فى « انجولا » و « أثيوبيا » و « اليمن الشعبية » و « البرتغال » و « إيران » وغيرها . .

ولكن تحقق نجاح هذا « الانقضاض » على السلطة الحاكمة بالبلاد لابد أن تنفذ بسموم مذاهبها وعقائدها ودعاياتها الزائفة والمغرضة إلى أعماق القاعدة العريضة من أفراد الشعب بتعضيد ومساندة هؤلاء العملاء غالبا عن طريق إقامة

بعض المنظمات المتسترة وراء « الأديان » انتفاءً للشبهة باعتبارها دولة « علمانية » لا تعترف بالأديان أو الروحانيات .

ويغدق قادة الكرملين المال والسلاح على هذه الحفنة من العملاء وما يؤازرها من منظمات داخلية أو خارجية بنفس الأسلوب المتبع مع فئة « التوتاليتاريا » بالبلاد الموالية لهم . . والأمثلة الآن واضحة وكثيرة فى كل من آسيا وأفريقيا وأوربا عن طريق المسيحية أو الإسلام .

ولقد أصبح لليبيا وكوبا أهمية خاصة فيما أسميه بـ« الثالوث الماركسى » المتكامل . . فلليبيا دور التمويل المادى والضغط السياسى ، ولكوبا دور الإمداد بالمرتزقة من المحاربين والعسكريين ، أما قادة الكرملين فلهم دور الإمداد بالأسلحة والمعدات العسكرية . .

الشيوعية واقتصاديات الشعب الكوبى

. . وحتى يضمن السوفيت استمرار خضوع البلاد الموالية لها فإنها تعمل على إضعافها اقتصادياً وتأخرها علمياً وتكنولوجياً . . وناهيك أيها القارئ العزيز عن استنزاف خيرات هذه البلاد وحرمان شعوبها ، وناهيك أيضاً عن الإيهام بمنحها المساعدات المالية والعسكرية . . فالنظام الشيوعى الاقتصادى فى حد ذاته يفتقر إلى الحافز سواء كان إيجابياً أم سلبياً ، ويفتقر بالتالى إلى التنافس وما يترتب على ذلك من عدم تحسين الإنتاج بل غالباً إلى تدهوره ، فالشعب الجائع العارى المكبّل يستطيب بل يتشوق إلى أى شىء يقدّم إليه ، ولو انحطت وسقمت نوعيته ، لأنه فى النهاية ليس له من خيار أو تفضيل !

فها نحن أولاء ، كخبراء للأمم المتحدة وكخبراء فنيين بالجامعة ، كنا نتميز عن أى فئه أخرى من الأجانب (باستثناء السوفيت بالقطع) لأننا نجمع بين الدبلوماسية والفنية ، فلنا الحرية والخيار فى التعامل بين المحليين « الديبلوتيبندا » ، « التكنى تيبندا » ، ولنا الحرية والخيار بين ارتياد أماكن

الترفيه « الدبلوماسية » و« الفنية » . . وبالطبع فإننا نعيش حياة مستقلة عن النظام الشيوعى القائم بالبلاد ، فلا نحمل دفاتر للتموين أو بالأحرى دفاتر « للجراية » كالمواطنين البؤساء ، ولا تحديد لنا بالنسبة للاستهلاك الفردى من مأكل أو ملبس أى « بالتعيين » ، ولاقيود علينا فى الخدمات وغيرها من المتطلبات اليومية للبشر المتحضر أو غير المتحضر ، بالإضافة إلى حقوقنا الدبلوماسية فى حرية الاستيراد من الخارج وعدم الخضوع للقوانين الضرائبية أو الجمركية المحلية ، ومع كلٍّ فقد قاسينا الحياة فى ظلال هذا الجو السياسى والاقتصادى الرهيب ، فاحتياجاتنا اليومية كانت ترتبط وتتقيد بما هو موجود ومعروض بالمحلين نوعاً وكماً ، وغالبيتها من الإنتاج المحلى المتواضع وغير المتطور ، وأما الطبيعة الخلابه التى تتميز بها جزيرة كوبا « لؤلؤة جزر الهند الغربية » ، فقد أفتقدت بهاءها ورونقها نتيجة إهمال الأماكن السياحية وقصور الخدمة فيها ، بالإضافة إلى الجو السياسى الرهيب ، والحياة الاجتماعية البغيضة التى تهيمن عليها وتظللها . . ويمكن القول إننا عشنا حياتنا هناك وكأننا كنا فى « قفص ذهبى » لا حركة ولا حيوية ، بل ذبول وإخفاق . . فلقد امتلأت نفوسنا بالحسرة والرثاء تجاه أفراد هذا الشعب الأصيل ، لهذا الشعب الذكى المرح الفضفاض . . لهذا الشعب وتاريخه الملىء بالنضال والكفاح . . الشعب الذى خاض الحرب الضروس . . حرب السنوات العشر (١٨٦٨ - ١٨٧٨) ضد العبودية ، وثورة ١٨٩٥ والتى أدت إلى حرب الاستغلال عام ١٨٩٨ . . لهذا الشعب الذى أخرج الأبطال أمثال « ماكسيمو جومز » ، « بدرو دلجادو » وغيرهم .

لقد كانوا يستحقون منا ومن كل ذى قلب رحيم المؤازرة والتعاطف ، لقد

كانوا يستحقون الإخلاص والتفانى فى مساعدتهم وكأنهم من بنى أوطاننا وأجناسنا ، لقد كانوا يستحقون منا بذل الجهد فى محاولة إدخال السرور إلى نفوسهم الحزينة وإخراجهم من وهدتهم ؛ وحالة الكآبة والغبن التى تسيطر على كيانهم وفكرهم ، كان لابد لنا من مراعاة شعورهم وتقدير مواقفهم التى لا يملكون من أمرها شيئاً . .

فلم ننتظر مثلا حتى يأتينا « ريكاردو » الأكبر كى يفعل بنا ما فعله « ريكاردو » الأصغر بابنى يوماً ما . . فلقد هجرنا ملابسنا الرسمية وثياب السهرة إلى غير رجعة ، واستبدلنا بها ما هو متواضع وبسيط . . فها هو ذا نوع من القمصان يطلق عليه هناك « الجوايابيرا » كنا نرتديه فى الحفلات الرسمية كبديل للياقة ورباط الرقبة . . كيف لنا أن نتأنق والناس من حولنا مجردون من ثيابهم ؟ كيف لنا أن نرتدى البزات « الملكية » والناس تحدقنا بأسمالهم البالية ؟ إننا لسنا من أسياد القوم ، ولسنا ممن افتقدوا الإحساس فلا نقيم وزناً لمشاعر الآخرين ، إننا لسنا من المتكبرين المتغطرسين الذين يختالون على الناس . . فالغرور والزهو غالباً ما يؤدى إلى الفشل ، وقد صدق المثل القائل : « قبل السقوط تشامخ الروح » !

كيف لنا أن نستطيب الغذاء والناس من حولنا تضطرم وتتلوى جوعاً وعطشاً ؟ كيف لنا أن نفرط فى الطعام والناس من حولنا يعيشون على أسلوب « حيثما سقط لقط » ؟ كيف لنا أن نحيا حياة الحرية والناس من حولنا مغللة أعناقها ؟ كيف لنا أن نستشرق الشمس والناس من حولنا تستغربها ؟ كيف لى أن أعمل وأجد كلّ من حولى عن العمل معرضين عازفين ؟ فالنساء يقضين الصباح فى التزيّن والرجال فى لَغْو الهموم والتذمر منهمكون . . ولا يلبث الجميع

أن يختلقوا الأعذار، مابين الذهاب إلى المقصف، فقد حان وقت تناول اليوغورت «الزبادى» وأحياناً «البودريو» (حساء بتوابل هندية كان يُقدم قديماً للفقراء) ليطول بهم المقام هناك، وما بين الخروج أفواجاً لزيارة زميل أو زميلة قد تغيبت لمرض، وما بين التوجه للعزاء أو مشاطرة الأحزان فى موت صديق أو قريب لأحدهم. .وما إن تحل فترة ما بعد الظهيرة حتى يستقبلوها بالدخول جماعات إلى غرف الاغتسال وقد انتشرت فى أماكن العمل لنسمع أوات الصخب واللغط وقد علت، وأحياناً قرع الطبول بما يصم الآذان. . ويخرجون بعد ذلك ليجدوا من المبررات أقواها ومن التفانين أبدعها. . فهناك اجتماعات الحزب ولابدلهم من حضورها والحرص على متابعتها وإلاّ. . . ! هناك المواعيد الدورية المحددة لقص شعورهم أو تسلّم ملبوساتهم، والتى إن فاتتهم أو تغافلوا عنها ولو ليوم واحد فلا مفرّ من الانتظار حتى الموعد اللاحق بفترة بعيدة قد تصل إلى ٤ سنوات كاملة فى حالة بعض أنواع الملبوسات كالبنطلونات أو التنّورات. .

ولا أخفيك سرًّا يا عزيزى القارئ أننى كنت أضيق ذرعاً وكأنه لم يعد يبقى لى فى قوس الصبر منزع حينما كان يأتينى ذكر هذه الاجتماعات الحزبية، على حين كنت على النقيض – أطرب ويمتلئ قلبى بهجة وسروراً – عندما كنت أصرح لهم، وبنفس راضية مطمئنة، بالذهاب لتسلّم ما قد يستر أجسادهم أو يقيم أَوَدَهم ولو لحين، وما قد يعيد النضارة إلى القلوب ولو للحظات. . فقد كانت فرحتى من فرحتهم وسعادتى من سعادتهم. . فما أشوق الإنسان وما أشد تلهفه فى أرض البؤس والجفاء إلى كل لحظة رضاً وبهاء، وإلى اغتنام الفرصة لرؤية كل قطرة ندى وارتواء!

ولعل من الأسباب الرئيسية التى تدفع بالفرد الكوبى إلى مثل هذا التكاسل وعدم الإقبال على العمل ، بل التهرب منه ، هو افتقاره إلى الحافز الإيجابي أو السلبي ، وقد سبق لنا الإشارة إلى هذه النقطة (أنظر صفحة ٩٧) . . غير أنه يفضل فى الواقع القيام بما يعرف بالأسبانية « لابور قولانتاريو » أى « العمل التطوعى » وذلك إرضاءً بل فى الواقع تخوفاً من السلطة وحتى قد يلقب بـ « الممتاز » فى تقريره السنوى ! والحافز لهؤلاء « الممتازين » هو الترخيص لهم حسب نوعية ورتبة هذا الامتياز إما بشراء سلعة أو هدية واحدة أو بقضاء سهرة يتيمة الدهر بإحدى المسارح أو الملاهى الليلية . . ولا عجب أن تعلم أيها القارئ العزيز أن الغالبية منهم يفضلون قضاء هذه السهرة ، لا لأنهم تواقون متعطشون إلى ما قد يخرجهم من صمتهم الطويل وحزنهم العميق ، بل لأن الشعب الكوبى بطبيعته وشيمته يهوى المرح والجذل ، شعب جُبل على حب وتقدير الفن والموسيقى ، فلا غرو إذن أن تجد من أفراده الكثيرين ممن يتجمهرون عند مداخل الأوبرا وصالات الموسيقى ، كى يتصيدوا بعض الأجانب ممن منحوا تصاريح مجانية يسألونهم الاصطحاب لمشاركتهم مشاهدة بعض عروض « البالية » أو الاستماع إلى بعض المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية العالمية . . وقد لا يخفى عليك أيها القارئ العزيز كم من القيمة النقدية التى يدفعها المواطن « الممتاز » فى شراء هذه السلعة أو لقضاء تلك السهرة . . فعلى الأقل عشرة أضعاف ما يدفعه الأجنبى بالعملة الحرة . . وهذا يؤكد لك مرّة أخرى كيف أن الدولة تمارس حقًّا تعتبره مشروعاً لها ، ألا وهو المعاملة والاتجار بالعملات ، وبطريقة « مستترة » عن طريق السوق السوداء !

والنظام الشيوعى بتدعيمه « العمل التطوعى » وبما ميزه به عن العمل

الأصلى يمنح الفرد مثل تلك « الأوهام » فى صورة حوافز ، قد جعل منه فى الواقع « عملا إجباريًّا » بل نوعاً من « العبودية والسخرة » لابد لأى فرد من مزاولته ووضعه نصب عينيه ، لا لأنه « بطاقة المرور » لارتياد هذه الأوهام فحسب بل – من الأهمية بمكان – لتجنب عداده من أفراد « اللائحة السوداء » . . ويا ويل من يدرج اسمه بتلك اللائحة ! . . فقد يفصل من وظيفته ويكون السجن مثواه ، أو ينقل على الأقل إلى أدنأ الأعمال وأشقها ، أو قد يحرم من بعض « الجرايات » !

« والعمل التطوعى » باتساع قاعدته وتشعب أغراضه وأهدافه بما يرتبط بكل النواحى الاقتصادية والاستثمارية فى الدولة لابد أن ينطوى ، بل يعتمد بالدرجة الأولى على التخصص الدقيق والخبرة الفنية والممارسة العملية والطويلة ، بما لا تؤتى ثماره أو تتحقق بإقحام الفرد فى أعمال ، لا تتفق أو لا تمت بصلة إلى عمله الأصلى أو تخصصه الفنى . . فكيف لمحام أو مذيع مثلا أن يقوم مرة بأعمال زراعية فنية ، كتقطيع قصب السكر وجمع الأناناس أو « الجريب فروت » فى الحقول ، ومرة أخرى برصف الشوارع أو مد مواسير المجارى ؟ وكيف لطبيبة أو ممرضة مثلا أن تقوم تارة بأعمال التغليف والتعبئة لبعض المنتجات الزراعية أو الصناعية ، وتارة أخرى بتقليم بعض النباتات أو تشذيب الإسفنج عند اصطياده ؟

ولقد كنا كأجانب فى زيارة لأحد مصانع « السيجار » العريقة بهافانا ، ولكم كانت دهشتنا عندما فوجئنا بقسم « التغليف اليدوى » وقد أغلق تماماً ، ولمدة أسبوع كامل حيث كُلف القائمون بالعمل فيه بالمشاركة بـ « العمل التطوعى » فى بعض الأعمال الترميمية والإصلاحية بمبنى المصنع ! وهناك

ملاحظة أخرى تستحق التنويه ، فلقد أنزلت فى قلوبنا الحسرة والألم . . وهى أن ما يزيد عن ٦٠٪ من آلات هذا المصنع الهائل قد تعطلت عن العمل تماماً وأصبحت جثثاً هامدة لاحراك فيها ، فهى أمريكية الصنع وليس لها من قطع الغيار ما يعيد إليها الحياة والحركة . . أين إذن السوفيت ؟ أين إذن ما يتشدقون به من التعاون والصداقة ؟ وأين المساعدات الحقيقية والفعّالة ؟

إن هذا العمل الهوجائى ، وهذا الأسلوب المشوّش والمربك والذى يحيد بالأفراد عن إتقاق أعمالهم الأصلية أو حتى القيام بها ، فإنه وإن دل على شىء فلا يدل إلاّ على التخريب بمقدرات هذا الشعب الأصيل كريم المحتد ، والإسفاف بالعقول .. فهو لا يتعدى كونه مظاهرة تضاف إلى سلسلة المظاهرات الشيوعية الممتدة ، والتى لا تستهدف فى ظاهرها سوى جذب الأنظار ، وفى باطنها وواقعها تقويض مرافق الدول التى تتصادق معها ، والإضرار بمصادر ثرواتها ، وعرقلة الأستثمارات الاقتصادية بها . . وحتى يمكن إذعان هذه الدول لرغبات قادة الكرملين ورضوخها إلى متطلباتهم وجعلها طوع بنانهم ورهن إشارتهم ، ولتكن دائماً فى حاجة ملحّه إلى تدخل الاتحاد السوفيتى فى شئونها الداخلية وسياساتها الخارجية على حد سواء ، بل لاقتناص الفرص للإلمام المباشر بمجريات الأمور بها ، وتحريكها كيفما يريد القادة تحت ستار التعاون الاقتصادى وشعار الصداقة ، عن طريق توظيف وإتخام الأجهزة التنفيذية والإدارية والفنية بالعديد ممن يطلق عليهم : « الخبراء السوفيت » !

هكذا هم السوفيت أينما تصادقوا مع الشعوب . . فهذا هو أسلوبهم ، وهذا هو النظام الشيوعى أساسهم ؛ تحطيم للاقتصاد ، ودعوة صريحة إلى الإذلال والخنوع . . كل ما يهمهم هو استتباب المقام وتثبيت الأقدام واستنزاف

الخيرات – إنهم يدفعون بالأفراد إلى الطاعة العمياء وكأنهم الآلات والدمى . . يدعونهم إلى التمسك بالنظريات والفسلفات الجامدة مثل « المادية الجدليّة » « لكارل ماركس » ، « فريدريك إنْجيلز » بما يضفون عليها من هالات الخديعة البراقة وأفانين الزيف والدّجل . . لقد جلعوا منها الشغل الشاغل لأفكارهم ، بل الملاذ لإزجاء الوقت وقتله ! لم يبق لديهم وقت للعمل بقدر ما يفرض عليهم من وقت للانصياع لما له منصتين فاغرى الأفواه ، زائغى العيون وكأنهم البلهاء !

فما بالنا وقد أتينا لنجد أمامنا الذكاء المتقد وقد خبا : والرغبة الملحة فى ارتشاف العلم وقد هبطت ، وما حيلتنا وقد وصلنا لنجد تجاهنا الحيوية وقد خمدت والمرح وقد غفا ، وحسن الطوية وقد انطوى . . كيف لنا إذن أن نؤدى رسالتنا ونحن بها متمسكون فى هذا الجو . . جو اللامبالاة وعدم الأكتراث الذى لم نكن نتوقعه قطّ ؟ كيف لنا أن نعيدهم إلى طبيعتهم ونسترجع فطرتهم بل نحثّ خُطاهم ؟

لقد أمسكنا بأول الخيط فلم يكن صعباً إدراك مدى افتقارهم إلى الحافز ، أى حافز ، ومدى احتياجهم إلى التبنى والرعاية ، وموالاتهم بالبذل والعطاء العلمى والروحى الذى لا حدود له .

وبعزيمة صادقة وإصرار جَلْدٍ ، وكياسة لا يضاهيها مثيل ، تَمكنّا من إقناع مسئولى الجامعة هناك بضرورة انخراطهم فى سلك الدراسات العليا تمشياً مع العرف الدولى والجامعى العام . . . وقد كان مبرراً موفقاً تجنبنا به جرح شعورهم أو التهكم على سياساتهم . . ولم نكتف بعد ذلك بهذا الحافز الأدبى ، بل ثابرنا على مؤازرتهم والأخذ بأيديهم قدماً إلى الأمام ، وجعلنا من أنفسنا مثلا عمليًّا ،

فقد تمسكنا بالمثل القائل : « درهم من القدوة خير من قنطار من الوعظ » ، واتخذناه شعاراً لنا . . فلم يقتصر دورنا – كخبراء – على مجرد النصح والتوجيه وإبداء الاستشارات الفنية والعلمية بل شاركناهم التنفيذ وعملنا معهم بأيدينا جنباً إلى جنب ، كما لم تقتصر رسالتنا على الوقت الرسمى وساعات العمل المحددة ، بل امتدت لتشمل الإجازات ونهايات الأسبوع فى أغلب الأحيان . . لقد قدحنا زناد مسيرتهم بالإحراج ؛ كيف يتخذون من اللامبالاة مسلكاً بينما الخبراء القادمون من مشارق الدنيا ومغاربها فاليهم بالعطاء مفرطون ؟ كيف لهم التغيب فى نهايات الأسبوع والخبراء قائمون على العمل جادين ؟ ومن هنا تحركت المسيرة الهوينى ، وما لبثت أن خطت بخطى واسعة فتحقق المراد وانتعشت الأفئدة واطمأنت النفوس . . ولقد كنت حقًّا فى أوج سعادتى عندما تركت « هافانا » ومبنى الذين عملوا معى يكاد يكون الأوحد بما يشع من ضياء يتبدد معه ظلام الليل المخيم ، وبما يبعث فى نفوسهم الطمأنينة إلى غد مشرق بالعمل ، فلقد أصبح دستورهم أن يصلوا الليل بالنهار بالتناوب فيما بينهم مواصلة للجهد وتحقيقا للآمال ، فلم يعد هناك حاجة إلى من يدفعهم أو يحثهم على العمل ، فهو سلواهم الوحيد يجدون فيه كل الإخاء والتعاون ، ويشعرون من خلاله بما يخفف من وطأة الحياة ، يأنسون له ويترنمون به .

فهذا هو الشعب الكوبى الأصيل الذى يريد أن يحيا حياة حرة شريفة ، يناضل ويجاهد فى سبيل الرفعة والرفاهية . . هذا هو الشعب الكوبى التوّاق إلى قيادة مخلصة واعية تأخذ بيده إلى بر الأمان ، تناصره وتدعمه وتؤمّن له الحياه ، وتفتح أمامه الآمال الكبار .

عندما أطيح بحكم « باتستا » فى عام ١٩٥٩ لتحل محله السلطة الحالية

للبلاد كانت « لؤلؤة » جزر الهند الغربية بشعبها الذى لم يتعد فى تعداده وقت ذاك خمسة ملايين ونصف نسمة – يمتلكون ما يقرب من خمسة ملايين رأس من الماشية تتخم بها مراعى محافظة « كاما جواى » (أى بمعدل رأس لكل فرد تقريباً) . . وناهيك بالطبع عن الخيرات الأخرى والمتعددة والتى كانت – ولا تزال – محط أنظار واهتمام السوفيت ، كما كانت فيما سبق محط أنظار وغارات قراصنة أعالى البحار من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين فى القرن السابع عشر. فتعال معى أيها القارئ العزيز لترى كم يقاسى الشعب الكوبى الآن من الحرمان والتعطش إلى اللحم وتعطشه إلى السكر ، وإلى أى شيء آخر ! وما لحم « التعيين » الذى قد يصرف إليه غراراً سوى نوع ممن يطلق عليه الأهالى بالأسبانية « تيرنيًا » (أى ما يصعب مضغه) .

وهكذا ترى السوفيت مصممين على استنزاف كل ما فى جعبة وحيازة هذا الشعب من خيرات طائلة ، بل دائبين على اغتصاب كل ما تنتجه أياديهم المرتعدة تحت لهيب السياط ووطأة الوهن والسخرة .

فلم تعد كوبا – وبحق – إلاَّ أرضا تكاد تكون خاوية الوفاض ، لا يمتلك ذووها شروى نقير.

المقايضة والتعاطف بين أفراد الشعب

لم يعد هناك من الزاد ما يمكّن الأهالى حتى من اقتسامه أو المشاركة فيه عملاً بالمثل القائل : « لقمة هنية تكفى مية » ! وإنما « المقايضة صارت سبيلهم الوحيد إلى التعيش ، لا — بالطبع — عن فائض أو متوفر لديهم عملاً بالمثل القائل : « لا تقايض إلاّ بالفايض » ! وإنما عن استغناء اضطرارى وهجر كلىّ أو جزئى لبعض من أساسيات أقواتهم تبعاً لدرجة الحاجة والتفاوت الطبيعى بين الفرد والآخر ، وكأنهم بذلك قد أضافوا إلى سِفْر المأثورات العالمى مثلاً كويتًا مستحدثاً ربما يقول « قايض بروحك فالحياة للظالم أحوج » !

فمن الأمور الطبيعية مثلا أن ترى هناك بعض الآباء على المائدة قد قايضوا أطفالهم باللحم مقابل الخبز ! فالأطفال أحوج منهم مؤكداً إلى اللحم فهم لا يزالون فى طور الإنماء وبناء الأجساد ، أما الكبار فقد عاشوا حياتهم من قبل وأى حياة ! هكذا يقولون وقد مطُّوا شفاههم تعبيراً عن الاستياء وعدم الرِّضا . . وهناك من يقايض بالسيجار أو السجائر مقابل البن أو الشاى . .

وهكذا ، ولعل هذه الوسيلة من التعايش تذكرنا بقصة الطفل « ريكاردو » عندما أراد أن يقايض ابنى بلعبته الوحيدة مقابل قطعة واحدة من الحلوى [انظر صفحة ٤٥] وكم تكون مخطئاً أيها القارىء العزيز أن تعتبر هذا الأسلوب من التعايش مجرد نوع من « تبادل المنفعة » كالقائم أو الشائع بين بعض النباتات والحيوانات ، خُلواً من العواطف والأحاسيس . فلقد عشت حياتهم عن قرب ، وكنت مدققاً وفاحصاً لكل ما يدور من حولى ، ذهبت بعقلى وفكرى إلى أعماقهم ، أتدارس انفعالاتهم وأنقب عن بواعثها . . أقارن الماضى بالحاضر ، وأتعرف على غرائزهم وما فطروا عليه وما قد انتهوا إليه .

فعن قبائل « الأراواكز » الهندية قد ورثوا المسالمة وطيبة السجية ، فلم يكن هؤلاء قطّ من المحاربين المتعطشين للدماء كقبائل « الكاريبْس » والذين أبقوا على جنسهم ، ولا يزال الكثيرون منهم يعيشون حتى يومنا هذا فى جزيرة « الدومينيكا » بشرقى البحر الكاريبى ، وعن الأسبان والأصل العربى فيهم مديد ، فقد ورثوا الكرم والعواطف الجياشة . . وأصارحك القول يا عزيزى القارئ أنه ربما يندر أن نجد شعباً يعيش تلك المأساة وهذا النظام السياسى الذى يفرض القسوة ويسلب القيم والروحانيات ، ولا يزال بالرغم عن ذلك تغلبه الفطرة المتقدة بالعواطف ، والغريزة المتميزة بالمشاركة الوجدانية والمؤاساة .

فهذه إحدى اللاتى عملن معى بالجامعة ، قدمت يوماً تختال فى مشيتها ووميض الفرح فى عينيها لتومئ لزملائها وزميلاتها بالتجمع من حولها ، وسرعان ما فطنوا إلى حقيقة فرحتها وسر بلوغها تلك الذروة من النشوة ، فلقد أتت إليهم بواحدة من ثمار « القشطة » ربما قد حصلت عليها – فى اعتقادى الشخصى – بأسلوب « حيثما سقط لقط » ! كيف لها أن توزعها فيما بينهم وهو يزيدون عن

عشرة أفراد فى حين أن بذورها قد تقل عن هذا العدد ؟ . . لقد كان حدثاً إنسانيًّا فريداً ، حدثاً تنوعت جنباته بكل ما يحتويه من معانى التعاطف والتضحيات ، أبت أن تأخذها الأنانية وتأكلها خفية وهى فى الطريق إلى الجامعة ، وأرادت أن يشاركها زملاؤها المحرومون تلك « الغنيمة » النادرة . . يشاركونها تلك السعادة الخاطفة . ولقد جاءتهم الفكرة فراحوا يخلطونها بالماء وبما لديهم من المخصص اليومى من سكر الشاى والبن مستعملين أحد « خلاطات » المعمل . . ولكم طفرت الدموع من عينى فرحاً وأسًى فلقد مزقتنى العواطف والانفعالات المتضاربة عندما تقدمت إلىّ هذه السيدة لتقدم إلىّ — وفى الصدارة — « أنبوبة اختبار » لا يعلو بها هذا العصير سوى بضع ستيمترات لنشرب معاً نخْبنَا ، ولأشاركهم الفرحة بتلك الأنابيب وما احتوت وكأنها الفضة أو شجرة السَّنْدُر البيضاء ! إن الكلمات لتقف عاجزة عن التعبير الصادق عما كان يجيش فى صدرى لحظتها تجاه هذا الثراء النفسى ، وما قد شعرت به حقًّا نحو هذه القلوب من الاحترام والإجلال .

« الجستابو » والأمن الشيوعى

لقد جاء فيما سبق ذكر « التوتاليتاريا » وكما علمنا فإنها الفئة التى يتكون منها الحزب الأوحد والحاكم كما هو الحال فى البلاد الشيوعية بصفة عامة . . وبالرغم من أن« التوتاليتاريا » قد يكون لها « السلطة التشريعية » واضعة القوانين فإنها تعتبر عموماً ذات سلطة « اسمية » لا تملك غير الموافقة والبصم على ما قد يأتيها من أوامر عليا . ونظراً لما جُبل عليه البشر على مرّ العصور ومنذ أن عرف الإنسان الحياة بكل ما فيها من حرية التعبير والحركة وحرية العبادة — كتراث بشرى — فمن الصعب على أى فرد ، مهما كان هذا الفرد ، أن يجد فرداً واحداً أو حتى حفنة من الأفراد ، وقد تملكوا من السلطة ما يجعلهم قادرين على كبت هذه الحريات والإطاحة بكل هذه القيم البشرية . . لهم فقط الأمر والنهى ، وللدهماء وسواد الشعب الطاعة وعدم الاعتراض أو إبداء الرأى .

وإزاء تلك الصور البشعة والتى سردنا بعضها كنموذج للحياة الكوبية تحت ظل الحكم الشيوعى الإرهابى — وما هو إلاّ انعكاس واضح وأكيد للقبضة

الحديدية التى يهيمن بها قادة موسكو على السلطة القائمة بكوبا وعلى مقدرات الأمور لشعبها – فمن البديهى خلق وإشاعة جو من الإرهاب السياسى ، يعيش الناس فى غضونه وتحت وطأته ، كأسلوب حتمى لاستتباب هذا النظام ولضمان استمراره . . ولكى يتحقق ذلك تلجأ مثل هذه الدول إلى أعمال الجاسوسية المقيتة وإلى إذكاء البوليس السياسى بما يشبه « الجستابو النازى » والذى ألّفه « أدولف عتلر » فى عام ١٩٣٣ ليعمل تحت إمرة « هينريش هِمْلِر » حفاظاً على استقرار الحكم النازى الدكتاتورى ، والضرب على أيدى المعارضين له ، ولقد ظل يعمل فى سطوة وفاعلية بغيضة إلى أن سقط عهد النازى بانتهاء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥ . .

فلا غرو إذن أن يرى الفرد الكوبى عمليات القبض الفجائية بل اختفاء العديد من الأفراد كأمر طبيعى ويومى ، ولا عجب – كما عرفنا من « الرفيق ميجل » – من أن الفرد هناك لا يأتمن على حياته حتى ولو كان من كبار اعضاء الحزب الشيوعى الكوبى ، كما لا يمتلك الثقة ولا الاطمئنان حتى إلى أقرب الناس إليه من أفراد أسرته . . وكثير من الأفراد – ولمجرد الوشاية بهم أو أحياناً لمجرد الاشتباه فى عدم ولائهم للسلطة ، أو لتذمرهم من الأوضاع السائدة – يجدون أنفسهم وقد سيقوا للعمل بالسخرة فى المناجم وقطع الأخشاب بالغابات ، تحت حراسات مشددة وتحت لهيب السياط ووسائل العنف والتعذيب . . ومن الأشياء الغريبة حقًّا أن تجد من الأطفال الكثيرين ممن قد شجعتهم السلطة على التجسس على ذويهم ، حيث – كما رأينا من الأحداث – إن الأطفال أكثر الضحايا إيماناً واقتناعاً بالنظام الشيوعى وبالسلطة فى البلاد بما يلقنونه من الزيف ، ولسهولة الانقياد لصغر عقولهم ولعدم درايتهم بمجريات

الأمور أو أعماقها ، أضف إلى هذا الستار الحديدى الذى يعزل البلاد عن العالم بما يفقدهم المقارنة بالغير من الشعوب أو حتى حاضرهم بماضيهم .

ومن هنا لا تجد من يجرؤ على الحديث أو المجادلة فى أى أمر من أمور البلاد أو أحوالهم المعيشية ، الألسنة مكبلة والعيون زائغه ، والأفواه فاغرة ، والعقول شاردة ، فلا يملكون من أمرهم شيئاً . . وإذا تحدث البعض فلابد لهم من التأكد والاطمئنان التام إلى من يتحدثون إليهم ، ولا يتم ذلك إلاّ بعد طول أناة وفترات طويلة من التروى والدراسة والتحليل ، وتتسع دائرة الإرهاب والتجسس لتشمل أيضاً الأجانب المقيمين هناك ، لا فرق فى ذلك بين مواطنى البلاد الشيوعية الأخرى والصديقة أو ما عداها من البلاد الرأسمالية وغيرها . .

ولقد علمت من مصادر متعددة ومختلفة لأعضاء السلك الدبلوماسى المقيمين بهافانا بأن السلطة فى البلاد لا تهتم كثيرًا ، بل لا تقيم وزناً أو احتراماً لقدسية وحماية الدبلوماسية العالمية ، بل تتخذ معهم كل وسائل الإرهاب النازية والفاشستية من هتك لحرمات الحقائب الدبلوماسية ، ومن اهتمام بالرقابة والتصنت على أمورهم وشئونهم الخاصة والعامة حتى ولو أدى الأمر إلى المواجهة ، مثلما حدث لأحد أعضاء سفارة تنتمى لإحدى الدول الشيوعية الصديقة لهم ، عندما خرج لقضاء نهاية الأسبوع مع أسرته على أحد شواطئ هافانا ، كعادة الأجانب هناك ، غير أن سيارته قد أصابها عطب مفاجئ اضطر معه إلى العودة بعد ساعات قليلة ، وعندما فتح باب مسكنه فوجئ بفردين بالداخل سرعان ما تقدما إليه . . وبعد أن تأكد من شخصيتهما ـ عضوين بجهاز الأمن السياسى الكوبى أبديا له اعتذارهما ، حيث إنهما يقومان بواجبهما ولا غضاضة فى ذلك ، ثم انصرفا وكأن شيئاً لم يحدث !

والحق يقال أيها القارئ العزيز ، أننا كخبراء للأمم المتحدة فقد حرصت المنظمة الدولية التابعين لها على اختيارنا على مبادئ ومقننات دولية تتضمن أساساً حيادنا السياسى الإيجابى والدينى المطلق ، بما يضمن أداء رسالاتنا العلمية الموفدين من أجلها ، ولنعمل بعيدًا عن التيارات السياسية وخلافها ، وبما يكفل الاحترام والالتزام الكامل بالتعليمات والنظم الداخلية للبلاد التى نعمل فيها ، حتى ولو كانت متعارضة مع مبادئنا وأفكارنا ، فنحن لها — بالضرورة وبأداء الواجب — منصاعون . . والتزاماً بذلك ، بل تعاطفاً مع أفراد هذا الشعب البائس والمغلوب على أمره ، فلقد قاسينا الأمرّين كما رأيت من الأحداث التى قد أشرت إليها . . فلكم تقبلنا ورضينا بالإذلال حليفاً ، ولكم دمعت عيوننا وامتلأت قلوبنا بالحسرة والألم تعاطفاً مع كل من حولنا ، ولكم تغاضينا عن حقنا فى الراحة والاستشفاء دفعاً للعمل وإنماءً للفكر وتذكيته وانتشالاً من الهاوية والكسل الذى هيمن على كيان من عملوا معنا فى الحقل العلمى والبحثى هناك .

ولعل هذه الأسباب مجتمعة كانت بمثابة حصن لنا ضد غزواتهم الجسورة والعلنية للمساكن . . فلقد كانوا يزاولونها فى الخفاء متخذين كل الاحتياطيات التى يضمنون بها عدم حدوث أى مواجهة كالتى يتبعونها — كما رأينا — مع أعضاء السلك الدبلوماسى خاصة ، بل والفنيين من بلدان الاتفاقات الثنائية عامة . . ربما اقتناعاً بطبيعة كياننا الواضحة ، وبما لم يؤت فى تصرفاتنا وسلوكنا من أخطاء أو شبهات ، أو ربما حرصاً على بقائنا واستمرار تواجدانا تحقيقاً لمطلبهم عن طريق المنظمة الدولية ، وهو قيامنا بالواجب الدولى من نحو التطوير والارتقاء بالإنسان أيًّا كان هذا الإنسان . . ومع كلّ فلم يعفنا هذا أو يثننا من

القاعدة العامة وهى التجسس والتصنت ، بل الإرهاب ، فهى فى نظرهم روتينيات الحياة فى بلادهم ولابد من التمسك بها لدواعى أمنهم ، وتنفيذًا لمبادئ أحكامهم . .

فلكى يقوم الأجنبى – أيًّا كان – بقضاء إجازته أو بعضها خارج البلدة التى يقيم بها ، لابد أن يتصل بأحد المكاتب السياحية المحلية التابعة للجهة الرسمية المعنية بأمور الفئة التى يتبعها ، وذلك لاتخاذ إجراءات حجز المبيت بالفنادق . . وبعد تأكد المكتب من توفير أماكن الإقامة تصرف له بطاقات الحجز محددة فتراتها بكل دقة . . ويطلب منه تقديمها مع جواز سفره إلى إدارة الفندق المعنى عند وصوله إليه . . ولا يسمح له بمد الإقامة تحت أى من الظروف . . كما لا يمكن للفرد – بداهة – أن يطلب الإقامة فى أى فندق حتى ولو كان به من أماكن المبيت ما يسمح بذلك . . وبهذا الأسلوب الشاذ بل المهين لكرامة الإنسان والمقيد لحريته يظل الفرد تحت سمعهم وأبصارهم أينما ذهب وأينما تحرك . . بل يتخذون منه فرصة سانحة وسبيلا مطمئناً إلى ترتيب دخولهم إلى مساكننا ، ففترات التغيب عنها محددة ، بل معروفة مسبقاً لديهم .

فقد حدث ذات مرة أن قمنا ثلاثتنا من الخبراء وعائلاتنا لقضاء بضعة أيام بمحافظة « أورينت » ، شرقى الجزيرة لزيارة معالمها التاريخية وقضاء بعض الوقت بغاباتها الطبيعية . . ولكم كانت حيرتى عندما اكتشفت بعد عودتنا أن « حقيبة مهماتى » وقد نسقت محتوياتها بما ليس من عادتى على الإطلاق ، وكأنهم قد تدارسوا أيضاً عاداتى وسلوكى ، أما أحدنا فقد فوجئ بأثر لحذاءٍ قد ترك على بساط القاعة الرئيسية بمسكنه وكأنه مطبوع بمادة لاصقة سوداء ، ولتكن قارًا ، أما الزميل الآخر فقد تركوا له « ثريا الصالون » ملقاةً على أحد

المناضد بعد إنزالها من السقف . . فمن الواضح جليًّا ، عزيزى القارئ ، أنهم وإن تعمدوا ترك هذه النُذَيْرات فلا يقصدون منها سوى التحذير والإرهاب . . وكأنهم يقولون لنا : « البحر من أمامكم ونحن من ورائكم فسيروا على الصراط المستقيم » !

وبعد . . فهذه هى الشيوعية !

هذه هى الشيوعية كنظام سياسى واقتصادى واجتماعى بكوبا . . هذه هى الشيوعية كما تعايشتها وليس كما قرأت عنها . . هذه هى الشيوعية كما رأيتها فى أحد البلاد التى تصادقت وتحالفت مع الاتحاد السوفيتى . . وقطعاً لا تختلف كثيرًا عما فى غيرها ممن تصادقوا وتحالفوا معها ، فالمخطط السوفيتى واحد والهدف واحد . . المخطط هو الاتساع التدريجى لسيطرة الاتحاد السوفيتى ليشمل العالم أجمع ، فليس من المهم تحديد هذا التوقيت الزمنى بقدر السعى والوصول إليه حسبما تساعدهم الظروف . أما الهدف النهائى ، بالطبع فهو استنزاف خيرات العالم لحفنة قليلة هم قادة الكرملين بموسكو . . وتتضح هذه السياسة التوسعية منذ قيام البلشفية السوفيتية بثورتها عام ١٩١٧ ضد روسيا القيصرية ، فقد بدأتها قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بابتلاع دويلات : استونيا ولاتفيا ، وليتوانيا على الشاطئ الشرقى لبحر البلطيق ، وقبيل انتهاء الحرب – وفى أعقاب هزيمة ألمانيا واليابان – انتشر الجيش الأحمر السوفيتى فى شرق أوربا ؛ فى شرق

ألمانيا ، شرقى برلين ، بولندا ، المجر ، رومانيا ، بلغاريا ، حيث كانت هذه الدول تضم أحزاباً شيوعية قوية ، تعمل متواطئة مع الاتحاد السوفيتى وتأتمر بأمر قادته بموسكو مما أدى إلى قيام حكومات شيوعية بهذه البلاد بعد انتهاء الحرب العالمية مباشرة . . أما تشيكوسلوفاكيا فأصبحت تحت النفوذ السوفيتى تماماً فى عام ١٩٤٨ . .

ويعتمد السوفيت فى اتساع رقعة سيطرتهم على اتساع مساحة أراضيهم والممتدة من شرقى أوربا إلى شمالى آسيا ، وأصبح الآن أكثر من ٥٠ ٪ من سكان العالم تحت السيطرة الشيوعية يختنق بدخانها الرهيب . . وقد نجح الاتحاد السوفيتى فى نشر عملائه حتى فى البلاد الديمقراطية فى صورة أحزاب شيوعية تنتهز فرصة تمتع الفرد فى هذه البلاد بحرية الكلمة والتعبير .

وبعض هذه الأحزاب يتمتع بنفوذ قوى وفعال كما هو الحال فى إيطاليا وفرنسا ، وحتى فى البلاد التى لا يمثل الحزب الشيوعى فيها ثقلا أو وزناً سياسياً ، فكثيرًا ما يثير الفتن والاضطربات حيث يكمن الخطر بصفة عامة فى موالاة أعضاء هذه الأحزاب للسوفيت ، فيعملون على زعزعة الثقة فى الحكومات الديمقراطية ، ولينقضوا فى الوقت المناسب عليها ويستحوزون على السلطة ، كما يقومون بدور الجواسيس لأولى نعمتهم فى الكرملين ، ولا يتورعون إذا سنحت الفرصة عن خيانة أوطانهم ذاتها . .

إنهم – كما رأينا فى كوبا – يغدقون المال والسلطة على فئة التوتاليتاريا استحكاماً للسيطرة والنفوذ ، واستنزافاً لخيرات البلاد وقوت الأفراد . . وبإضافة أى دولة جديدة إلى فلكهم ، فسرعان ما تبدأ بؤرة جديدة للتركيز

والإشعاع منها إلى ما يحيط بها ، بل تصير السلطة فيها لسان حالهم ، وتدعيماً لهم إما ماديًّا أو عسكريًّا . . كما يحدث الآن فى ليبيا وكوبا على سبيل المثال . . وعموماً فالبلاد النامية أو حديثة الاستقلال ، باضطرابات الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فيها ، تصبح مطمعاً للسوفيت ، حيث إنها أسرع وأضمن فريسة لهم ، فغالبًا ما تستميل هذه الدول وتتقرب إليها بالصداقات الوهمية تحت ستار المساعدات الاقتصادية والتكنولوجية أو الحماية العسكرية ومناهضة الاستعمار الغربى إلى آخر ما فى معجم الدعايات والشعارات السوفيتية من جدل وتزييف . .

ولو نظرنا إلى النظام الشيوعى على حقيقته كما تعايشته عن قرب بجزيرة كوبا « لؤلؤة جزر الهند الغربية » لوجدنا فيه الدكتاتورية ، فليس للديمقراطية هناك أى مكان ، والطبقة الكادحة من العمال والفلاحين يشاركون الطبقة البرجوازية الذل والاستنزاف بما لم يقاسوه تحت أعتى الدكتاتوريات الرأسمالية . . ولو عاش كارل ماركس واضع نظرية « المادية الجدليّة » كما جاءت فى « بيانه الشيوعى » ولمس ما تقاسيه الطبقة العمالية بالبلاد الشيوعية وعلى قمّتها الاتحاد السوفيتى بما يفوق بمراحل ما كان يقاسيه عمال الصناعة فى إنجلترا فى بادئ ثورتها الصناعية بما دفعه إلى وضع نظريته وقت ذاك للعن نفسه وتراجع عنها ، وصمم على إلغائها معاجم النظريات الاقتصادية والاجتماعية ، بل طالب بإطاحة الشيوعية أينما وجدت ، وتزعم الدعوة إلى ثورة عمالية عالمية للانقضاض عليها ، وليس للمطالبة بتعميمها ، كما كان يعتقد عند وضعه لهذه النظرية المشئومة المنافية للطبيعة البشرية منذ أن عرف الإنسان الحياة ، وعرف الحياة الاجتماعية ، وعرف الأديان والروحانيات ، وعاش التراث الإنسانى والتعاطف والوجدان

والتعاون والسلم من أجل رفاهية الإنسان وحياته الحرة الطليقة البناءة . يؤثر بها ويتفاعل معها بما منحه الله من فكر وقدرة على الخلق والإبداع الفكرى لم يحظ بها أىّ من المخلوقات الأخرى !

وعالم غريب لا ينتهى !

المحتويات

صفحة

رقم الإيداع	١٩٨٠/٤٢٤٣
الترقيم الدولي	٩٧٧-٧٣٣٧-٣٢-٩ ISBN

١/٨٠/٩٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذا الكتاب

رحلة من نوع مختلف ، فهى رؤية عن قرب لواحدة من الدول التى وقعت فريسة مخالب الدبّ السوفيتى : كوبا – لؤلؤة جزر الهند الغربية .

ويعيش المؤلف فيها عامين كاملين خبيراً بالأمم المتحدة ، تحيطه من كل جانب الأسوار الحديدية ، والقيود الرقابية ، لكن ذلك كله لم يحل دون الكشف عن قناع الشيوعية الحقيقى ، وهى تنفث سمومها فى البشر : إرهاباً وإذعاناً . .

لذلك يعد هذا الكتاب جديداً فى نوعه ، لأنه جاء بعد مواجهة وتجربة ومعاناة .

١٩٥٥٨ / ٠١